الأساليب البلاغية في سياقات الترغيب والترهيب في الحديث النبوي الشريف

(العلاقة بين الرجل والمرأة نموذجاً)

دكتورة

ثناء محمود قاسم

أستاذ مساعد بقسم البلاغة والنقد الأدبي والأدب المقارن

بكلية دار العلوم جامعة الفيوم

عدد يونيو ٢٠١٧

مدخل :

لا يزال القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف المادة العلمية الأكثر تناولاً والأقوى جاذبية للباحثين ، والمعين الذي لا ينضب ، والكنز الفائض بأسرار لا تنفد . فهى – دون غيرها– تبث الباحث مزيجاً عجيباً من الشعور بالفخر والشرف والوجل والضعف والحيرة والتردد في المواصلة أو إيثار السلامة بالانصراف إشفاقاً من الإخفاق ؛ لأسباب تتصل بكونهما ركيزة مصادر التشريع الإسلامي ،كما أخبرنا رسولنا الكريم صلوات الله عليه وسلامه : تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا لَنْ تَضِلّوا بَعْدَهُ إِنِ اعْتَصَمْتُمْ بِهِ ، كِتَابُ اللهِ، وَأَنْتُمْ تُسْأَلُونَ عَنّي، فَمَا أَنْتُمْ قَائِلُونَ؟ قَالُوا: نَشْهَدُ أَنّكَ قَدْ بَلّغْتَ وَأَدّيْتَ وَنَصَحْتَ، فَقَالَ بِإِصْبَعِهِ السّبّابةِ، يَرْفَعُهَا إِلَى السّمَاءِ وَيَنْكُتُهَا إِلَى النّاسِ: "اللهُمّ اشْهَدْ، اللهُمّ اشْهَدْ" ثَلَاثَ مَرّاتٍ، ثُمّ أَذّنَ، ثُمّ أَقَامَ فَصَلّى"[١]

ولقد ورد هذا الحديث في حجة الوداع وفيه – وفي غيره –الوصية الصريحة من الرسول عليه الصلاة والسلام بالاعتصام بكتاب الله ، أما ما يتعلق بالاعتصام بالسنة والأخذ بها ، فهو مفهوم مما ورد في آيات الكتاب والأحاديث الموثوق في صحتها . نذكر منها ما يلي:

١– قوله تعالى: "وَمَا آتَاكُمُ الرسولُ فخذوه، وما نَهَاكُم عنه فَانتَهُوا". (الحشر/٧)

---

[١] – صحيح مسلم، شرح النووي ، كتاب الحج، ب ١٩،ح١٢١٨، ص ٥٥٨ . جدير بالذكر بهذا الصدد أن الحديث المنقول عن الرسول صلى الله عليه وسلم "تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي أبداً كتاب الله وسنتي"

لم يرد ذكره بلفظه في كتب الصحاح ،ولم يذكر بهذه الرواية إلا في موطأ مالك وضعفه الصحاح .

أما الترمذي فقد رواه بلفظ (يا أيها الناس إني تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا : كتاب الله وعترتي أهل بيتي) انظر: الجامع الكبير– سنن الترمذي، أبو عيس محمد الترمذي(٢٠٩–٢٧٩هـ)، تحقيق بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي– بيروت ،ص ٣٧٨٦.

٢- قوله تعالى: " لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا " (الأحزاب / ٢١)

٣- قوله تعالى: " فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ" (الأعراف/ ١٥٨)

٤- قوله صلى الله عليه وسلم: " عَلَيْكُمْ بِتَقْوَى اللهِ .والسَّمْعِ والطَّاعَةِ، وإِنْ عَبْدَاً حَبَشِياً . وَسَتَرَوْنَ مِنْ بَعْدِي اخْتِلافاً شَدِيداً . فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ المَهْدِيِّينَ عَضُّوا عَلَيْهَا بالنَّوَاجِذِ".[٢]

٥- قوله صلى الله عليه وسلم:" أَنَّ الأمانة نزلتْ من السماء في جَذْرِ قلوبِ الرجال، ونَزَلَ القرآنُ فَقَرؤوا القرآنَ وَعَلموا من السنة".[٣]

٦- قوله صلى الله عليه وسلم: " فَإِذَا نَهَيْتَكُم عَنْ شَيءٍ فَاجْتَنِبُوه، وإِذَا أَمَرْتَكُم بِشيءٍ فَائتُوا مِنه ما اسْتَطَعْتُم ".[٤]

فهذا طريق وَعِرٌ، ومسلك شائك، ومُلْتَمَسٌ محفوف بالنور والنار، نشفق من الاقتراب، ونأبى ألا أن نشتم عبقه ونتروح نسماته . تلك قدسية سحرية وساحرة، حملت رسالة سماوية بتشريع لمن تظلهم هذه السماء من أهل الأرض الذين رضوا بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبياً ورسولاً . دين معجزته الكلمة التي

---

[٢] – سنن ابن ماجة، الحافظ محمد يزيد القزويني (٢٠٩-٢٧٣هـ) ،ابن ماجة، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية،ب٦ ح٤٣، ص١٦ .

[٣]–صحيح البخاري، أبو عبد الله محمد بن اسماعيل البخاري (١٩٤-٢٥٦هـ) ، دار ابن كثير ، دمشق- بيروت ، الطبعة الأولى٢٠٠٢م ، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة ، ص ١٧٩٧.

[٤] – السابق، ص١٨٠٠ .

يتقن فنونها من نزل عليهم كتابه، ليدركوا أنها كلمة يعرفونها لكنها لا تخرج من قرائحهم، يجري على ألسنتهم مثلها، لكنها تتلعثم في مجاراتها.

إنه القرآن الكريم ، النموذج الأمثل في البلاغة ، الوحي الذي تلقاه المصطفى ليجري في خاطره يعلمه ويزكيه ويستلهم فنونه وأفانينه ، فكانت فصاحته صلى الله عليه وسلم .وقد قال:" ما مِنَ الأنبياء نبيٌ إلا أُعطِيَ من الآيات ما مثله أُومِن – أو آمَنَ – عليه البشر، وإنما كان الذي أُتيتُهُ وحياً أوحاه الله إليَّ، فأرجو أني أكثَرُه تابعاً يومَ القيامة"[٥].

وما بين النص الإلهي المعجز والنص النبوي تركض الأقلام وتتهافت الأفهام تهافت المنقب عن مكنون الدُر وخفي الكنوز .فكان للأول النصيب الأوفر من العناية والنظر والتأمل والبحث والكشف مما يصعب حصره، وتلاه الثاني في كل هذا . ذاك لأن النص النبوي الشريف ليس نصاً معجزاً كالقرآن ، ولكنه استلهم بلاغته وفصاحته من القرآن . وهو – كما وصفه الرافعي – كلام الأرض بعد السماء[٦].

وثمة العديد من الدراسات التي قلّبت في أحاديث الرسول عليه الصلاة والسلام ؛ لأنها هى المتصلة بوجوه الفصاحة والبيان دون منابع السنة المتمثلة في الفعل والتقرير والصفة والموقف والسيرة . من هذه الدراسات :

---

[٥] – السابق، ص ١٧٩٧.

[٦] – انظر: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، مصطفى صادق الرافعي، مراجعة درويش الجويدي، المكتبة العصرية ، بيروت، ٢٠٠٦م ، ص٢٢٧.

١- البيان والتبيين للجاحظ ، تحدث فيه عن فصاحة الرسول وبلاغته، و أورد أمثلة لبعض الأحاديث الشريفة .

٢- المجازات النبوية للشريف الرضي ، ذكر فيه ستين وثلاثة مئة حديث مشيراً فيها إلى مواضع البيان بصورة إجمالية .

٣- أسرار البلاغة في علم البيان لعبد القاهر الجرجاني، وله إشارات قليلة عن أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم .

٤- العمدة لابن رشيق، وفيه ينوه بالحديث الشريف من أجل التمثيل، ويشير بأسلوب عام عن أثر المجاز في نفس القاريء .

٥- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر لابن الأثير، وفيه دراسة تحليلية لأمثلة من القرآن الكريم والحديث النبوي وأشعار العرب .

٦- الطراز : يحيى بن حمزة العلوي. وقد درس فيه بعض الأحاديث النبوية كشواهد على دراسته البلاغية .

٧- إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، مصطفى صادق الرافعي، ويخصص من الكتاب قسماً لدراسة فصاحة الرسول صلى الله عليه وسلم .

٨- وله أيضاً وحى القلم، ويعرض فيه بعضاً من دروس النبوة .

٩- الحديث النبوي من الوجهة البلاغية . عز الدين السيد، وهذا الكتاب يدل على جهد كبير وواسع لدراسة بعض الأحاديث دراسة أدبية بحتة

١٠-التصوير الفني في الحديث النبوي، محمد لطفى الصباغ . وهذا الكتاب دراسة فنية لبعض أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم تقوم بدراسة اللغة والإشارة العابرة

للمواطن البلاغية للحديث وبيان نوعه مثل كتاب من بلاغة الحديث الشريف، لعبد الفتاح لاشين .[٧]

وبذلك ربما أكون قد وجدت لقدمي موضعاً وسط هذا الزخم ، والتمست سبيلاً دقيقاً من فضل العلماء والباحثين الذين سلكوا من الدروب أوسعها وأكثرها رحابة .

ولست أخفي أن النقطة البحثية التي يدور في فلكها هذا البحث كانت منذ سنوات طويلة فكرة اعتزلت في ركن من الفكر والوجدان ،لا تقوى على المغادرة ، ولا تجرؤ على الإفصاح والإعلان . وجدتها – الآن– تسعى سعياً حثيثاً على استحياء تدعمه رغبة في تزويد النفس والروح بقبس من نور النبوة بمصاحبة أقواله ومواقفه وحكمته صلى الله عليه وسلم في التأسيس لدولة الإسلام في عهودها الأولى ، وتدعمه – أيضاً – رغبة في التزود بألوان من المعارف والمفاهيم عن ديننا الحنيف تنقل التاريخ وتمس الواقع .

وقبل أن يقع اختياري على مقام الترغيب والترهيب – تحديداً– لفتني المقام الأكبر والسياق الأوسع لمخلوق اصطفاه ربه – وحده – لقيادة أمة عظيمة إلى ما شاء الله من الأزمان والأدهر.

إنسان منوط به حمل الأمانة وتبليغ الرسالة للناس كافة على اختلاف مشاربهم وعقولهم وأفهامهم ونفوسهم . فكيف يسوس؟ وكيف يأمر فيؤتمر بأمره ؟ وكيف ينهى فيصرف الضمير إلا عن طاعته ؟ كيف يضبط رمانة الميزان فيحتفظ بالتوازن فلا تختل المقاييس ولا ينفرط العقد ؟

[٧] –الصورة البيانية في الحديث النبوي الشريف ، دراسة تطبيقية في سنن الترمذي ، مخطوط ماجستير في اللغة العربية ، رحمة الله الطيب رحمة الله ، جامعة أم درمان الإسلامية ، ص١٣،١٤ .

تلك مهمة ثقيلة لا يحتملها بشر إلا بعناية سماوية ، تمنحه قدرات ودرجات تؤهل للقيادة ، منها فصاحة اللسان وإحكام المَنْطق وبلاغة الكلام التي تُجَمِّعُ أو تُفَرِّق، تُرَغِّبُ أو تُصْرِف ." كان منطقه صلى الله عليه وسلم على أتم ما يتفق في طبيعة اللغة ويتهيأ لها إحكام الضبط وإتقان الأداء : لفظ مشبع، ولسان بليل، وتجويد فخم، ومنطق عذب، وفصاحة متأدية، ونظم متساوق وطبع يجمع ذلك كله، مع تثبت وتحفظ وتبيين وترسل وترتيل . وقد قالت عائشة رضى الله عنها : ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسرد كسردكم هذا . ولكن كان يتكلم بكلام فصل، يحفظه من جلس إليه"[٨] . وكانت فصاحته ظاهرة لأهل الفصاحة ، وبلاغته واضحة لأهل البلاغة ، يدركون تميزه عنهم في كلامه وفصاحة حديثه وهم أهل للتمييز ." حتى إن أبا بكر رضي الله عنه قال له مرة : لقد طفتُ في العرب ، وسمعتُ فصحاءهم، فما سمعت أفصح منك؛ فمن أدبك (أى علمك) ؟ قال: أدبني ربي فأحسن تأديبي .[٩]

وقد قال تعالى:" وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم ، وكان فضل الله عليك عظيماً " (النساء /١١٣).

ولا غرو في ذلك فقد كانت معجزته صلى الله عليه وسلم كلامية ، تمثل النموذج الأعلى في البلاغة ، ولقد أدرك ذلك الإعجاز قوم أكثر ما يميزهم في الإتقان البلاغة . فكان من الطبيعي أن يتسم الرسول صلى الله عليه وسلم بالبلاغة والفصاحة التي تقف في درجة بين النص السماوي المعجز وفصاحة العرب الذين

[٨] – إعجاز القرآن، ص٢٣٩ .

[٩] – السابق، ص٢٤٢.

أنزل إليهم هذا النص من جهة ، وأن يؤهل المختار لتبليغ نص بهذا الإعجاز، بما يتسق وطبيعة ذلك النص وهذا الإعجاز من جهة أخرى .

قال تعالى: " ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلوا عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم ، إنك أنت العزيز الحكيم " (البقرة /١٢٩). وقال جل شأنه :" إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ولا تكن للخائنين خصيماً" (النساء/١٠٥)

إن الدين الذي جاء بآخر الرسالات السماوية قد أوحى به رب السماوات والأرض لخاتم الأنبياء والمرسلين ليمكن له في الأرض ، ويجوب نوره أرجاء العالم ، تلك مهمة لا يقوى عليها إلا من اصطفاه ربه للقيام بها ، مهمة الدعوة إلى الإسلام عقيدةً وتشريعاً ، وتأسيساً لدولة وأمة قائمة عليه ، تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر. مهمة تُفَصِّلُ ما أجمله الوحى ، وتفسر ما أشار إليه ، وتكمل ما سكت عنه ؛ تلك مهمة تكاملت مع تعاليم القرآن . وهذا مضمون ما نزل عليه من وحي بعد خطبة الوداع في قوله تعالى:" اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتي ، ورضيت لكم الإسلام ديناً " .(المائدة/٣) .

ولقد استعان صلى الله عليه وسلم على مهمته في أحاديثه وأقواله في مواقف شتى بالكثير من الأساليب البلاغية المتنوعة كلٌ في سياقات ومقامات تدفع إلى التأثير والإقناع ، ومن ثم يصيب كلامه الهدف . ولعل مساحة الترغيب والترهيب الواسعة في أحاديثه الشريفة تُخبر بالفطنة في انتقاء أدوات ربما تكون أكثر فاعلية في ترغيب المسلم أو ترهيبه في أمور تمس عمق التعاملات ، وتسهم في ضبط تحرك المجتمع في إطار الشريعة الإسلامية عبر الأزمان وليس في عصره فحسب . ولقد ضم باب الترغيب والترهيب العديد من أمور المسلمين التي أرسى قواعدها ، ووضع

حدودها الرسول صلى الله عليه وسلم . فقد تتعثر هذه الوريقات إذا ما شرعت في الإلمام أو الإحاطة به . بيد أنه لو اقتصرت على جانب من هذه المعاملات ربما أصابت شيئاً من أهدافها وطموحها ، ولا سيما جانب يمس قطبي الكون ، ويكاد يكون ما يتعلق بهما هو المسئول عن ضبط سائر الجوانب الحياتية الأخرى ،وهو ما يخص الرجل والمرأة ، ويضبط العلاقة بينهما في كل دقائقها . وهذا الأمر يحتاج إلى التطرق لعدة نقاط بالمدارسة والبحث ، تلقي الضوء على الأساليب البلاغية المتسقة مع سياقات الترغيب والترهيب في الحديث النبوي الشريف ، وتصور بجلاء قدرته صلى الله عليه وسلم في البيان والبلاغة والفصاحة والحكمة في إدارة شؤون المسلمين .

ويمكننا عرض مفردات البحث على النحو الآتي :

أولاً : معنى في الترغيب والترهيب

الترغيب والترهيب ثنائي يكثر فيه التلازم الذي يوقع في التصور أنهما متضادان ،لكن بدرجة تدعو إلى تأمل معنى التضاد ودرجته وغايته فيهما في الاصطلاح وليس اللغة. فثمة ثلاث درجات من الدلالات يجدر التوقف عندها لالتقاط الفروق الدقيقة بينها في السياقات المستخدمة فيها . تتمثل فيما يلي:

رغب فيه – رغب عنه – رهبه .

فالرغبة في الشيء مضادها العزوف عنه وليس الرهبة منه. والمعنى المعجمي لكلمة (رغب): حرص على الشيء وطمع فيه وإليه ابتهل ، ورغّبه فيه : جعله يرغبه وأعطاه ما رغب فيه. ورغب عن الشيء : تركه متعمداً، وزهد فيه، ولم يرده.

وفي لسان العرب وغيره الرهبة ترادف الخوف والفزع ، نقول أرهب فلاناً : خوفه وفزعه. ورَهَبَه: خَافَه.

والإقبال على الشيء والطمع فيه يقابله الانصراف والعزوف عنه والزهد فيه . وهى درجة لا تطاول الرهبة منه ، تلك التي تعني لغوياً الخوف والفزع[١٠].

وفي الآيات المحكمات: "عسى ربنا أن يبدلنا خيراً منها إنا إلى ربنا راغبون" (القلم/٣٢).

و" قال أراغب أنت عن آلهتي يا إبراهيم لئن لم تنته لأرجمنك واهجرني ملياً " (مريم/٤٦).

و" إنهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغباً ورهباً " (الأنبياء/٩٠)

أما عند (التفعيل) للمعنى الذي منه جاء وزن (الترغيب والترهيب) ، فقد توضع الثانية إزاء الأولى في الاستخدام والاصطلاح لأغراض الكلام وسياقات المعاني ، والترغيب – بهذا الصدد– هو " وعدٌ مؤجلٌ، ولكن يرافقه تحبيب وإغراء، وذلك بمعنى التشويق، والمعزز مؤكد فلا يتردد الفرد في تحققه، فكأنه فوري، لثبوته لمجرد تحقق شرطه . وهو جزاء على عمل صالح أو امتناع عما هو سيء أو ضار بمحض الحرية والاختيار"[١١]. وهو " الإثابة والثواب والمكافأة نتيجة قيام الفرد بأعمال

[١٠] – انظر: المعجم الوسيط،ج٢ ، مكتبة مشكاة الإسلامية، ص ٣٦٩. وكذلك لسان العرب، المجلد الثاني، ص١٦٧٩،١٧٤٨.

[١١]– أساليب التشويق والتعزيز في القرآن الكريم، دكتور الحسين جرنو محمود جلو، دار العلوم الإنسانية، دمشق ،ط١ ،١٩٩٤م، ص ٣٨،٣٩.

جيدة بعد القيام بها...وهو الدافع الإيجابي الذي يحصل عليه الفرد عند حدوث الاستجابة التي يتوقف عليها هذا الثواب"[١٢].

أما الترهيب فهو سلوك يرمي إلى خلق حالة من الخوف والفزع الذي يبلغ حد الكراهة الشديدة من ارتكاب شيء ما ، أو الوقوع فيه ، أو جعله خياراً ، بتوصيف عاقبة ذلك بصورة تدعو إلى حتمية تجنبه.وهو بذلك يتخطى مرحلة طلب عزوف شخص ما عن شيء معلوم ومقصود ، والاكتفاء بجعله يرفضه أو ينصرف عنه .

وهذا بطبيعة الحال يتلاءم مع سياقات الدعوات الدينية والتربوية والاجتماعية وغيرها.

و يكثر في أسلوب الحديث النبوي الشريف بوصفه وسيلة من وسائل الدعوة إلى الله وشريعته –جل وعلا - محتذياً حذو الأسلوب القرآني في ذلك . فالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وتبليغ الدعوة ، وتنظيم المعاملات ، والتأسيس لمجتمع يسلك النهج القويم ترسيخاً لمبادئ الإسلام يستلزم أسلوباً يقع بين الرجاء والخوف ؛ الرجاء في المثوبة فيُقبل الإنسان على الشيء مسارعاً إليه، أو الخوف من العاقبة فيكره أن يقع فيه.والكراهة المنوط بها أسلوب الترهيب تضمن عدم التفكير في الاقتراب من الشيء المنهي عنه ، لا لمجرد الشعور بأنه لا يرغب فيه بل طلباً للسلامة من بشاعة العاقبة.

ثانياً : محسنات الكلام

[١٢] – التربية الأخلاقية، دكتور إبراهيم ناصر، دار وائل للنشر، ط١، ٢٠٠٦م، ص٢١٣.

محسنات الكلام فرع في البلاغة له دوره وأهميته في لغة أكثر ما يميزها الجمال ، وفي أساليب ارتبطت بمخاطبة الناس كافة لتقرير أمور تتعلق بدينهم ودنياهم .وله وجود ظاهر في أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم بلسان بلّغ ما أوحى إليه من القرآن الكريم الذي كثر فيه – كذلك– هذا اللون البلاغي. وليس الحسن بالكثرة والتكلف فيه ، أو تقديم رعاية اللفظ على المعنى المراد في الكلام وإلا كان الحال كما يصفه بيت المتنبي [١٣]:

إذَا لم تُشَاهِدْ غَيْرَ حُسْن شِيَاتِهَا وأعضائها فالحُسْنُ عنك مُغَيَّبُ

وليس هناك أحسن من أن " ترسل المعاني على سجيتها، وتدعها تطلب لأنفسها الألفاظ ، فإنها إذا تُركت وما تريد لم تكتس إلا ما يليق بها، وما تلبس من المعارض ما يزينها"[١٤].

ولقد قسم البلاغيون ما ضمنه علم البديع من محسنات الكلام إلى ضربين ؛ ضرب يرجع إلى اللفظ وضرب يرجع إلى المعنى . أما الأول فيُعنى بما يجمل الكلام ويجعله سائغاً مقبولاً من جهة الصوت ،وأما الثاني فيُعنى بما يجمل الكلام من وجوه تتداعى على الألفاظ بوضعها في قوالب معينة تضفى على الكلام جمالاً .ويتكفل الاثنان بإثارة المتلقي ، وإصغائه للمعنى المراد .و هذا الدور لعلم البديع يأتي بعد تطبيق الكلام على مقتضى الحال ووضوح الدلالة فهو " علم يعرف به وجوه تحسين الكلام بعد رعاية المطابقة ووضوح الدلالة"[١٥]

---

[١٣] – أسرار البلاغة، عبد القاهر الجرجاني، تحقيق محمود شاكر،دار المدني بجدة، الطبعة الأولى١٩٩١م، ص ٩.

[١٤]– السابق، ص١٤.

[١٥] – التلخيص في علوم البلاغة، الخطيب القزويني، ضبطه وشرحه عبد الرحمن البرقوقي، دار الفكر العربي ،الطبعة الأولى، ١٠٩م ، ص ٣٤٧ . وجواهر البلاغة، السيد أحمد الهاشمي ، تحقيق وشرح محمد التونجي، مؤسسة المعارف، بيروت،ط١٩٩٩،١م ،ص ٢٨٦. حيث أكد هذا المفهوم بأنه علم يعرف به الوجوه والمزايا التي تزيد الكلام حسناً وطلاوة وتكسوه بهاءً ورونقاً بعد مطابقته لمقتضى الحال، ووضوح دلالته على المراد .

ومفاتيح الأذهان والقلوب من تلك المحسنات البديعية نراها في شقيها اللفظي والمعنوي من خلال تأمل منظومة الإيقاع البادية في أحاديثه صلى الله عليه وسلم والمميزة لكلامه ، حيث التوجيه والتعليم والترغيب والترهيب واستمالة القلوب والأفهام . وكذلك محسنات المعنى غير المرتكزة على الصوت.

وهذا يدعونا حين نردد أقواله صلى الله عليه وسلم إلى تأمل تلك المَلَكة اللسانية التي جرت بأحكام التشريع والمعاملات تزامناً مع تبليغ ما يوحى إليه من القرآن ،فتظهر قدرته العالية في البلاغة – دون بلوغ حد الإعجاز– فلم تغب تلك النغمة، ولم يتوار هذا الإيقاع في أحاديثه صلى الله عليه وسلم وبخاصة في سياقات الترغيب والترهيب التي تستدعي درجة من لفت الانتباه وجذب الأذهان والإصغاء ثم التأثير، ولا يُنكر مع هذا سهولة حفظ هذه الأقوال عند التلقي بما يضمن لها البقاء ،ومن ثم الالتزام والعمل بها. ويمكننا تناول محسنات الكلام على النحو الآتي:

أ – منظومة الإيقاع

يبلغ الصوت – وهو أصغر وحدة في الكلام– قدراً عالياً من الأهمية حيث صدارة التلقي وإثارة الانفعال بصنوف الكلام ، ومقاماته شتى . ولقد يستميل الأذن العربية منذ الجاهلية من القول إيقاعه وموسيقاه ونغماته ، فتطربُ وتُعجبُ .ويداعب النفس فصح اللسان وآلة البيان فتصفو وتُسحرُ. حتى إذا ما نزل القرآن الكريم بمعجزته الكلامية صوتاً وحرفاً ولفظاً وتركيباً ، سرى في نفوسهم ذلك الأثر الذي أبلغهم اليقين من مغايرة نسقه كلامهم مع بلاغتهم وفصاحتهم وحسن بيانهم . "حتى أن القاسية قلوبهم من أهل الزيغ والإلحاد، ومن لا يعرفون لله آية في الآفاق ولا في أنفسهم ، لتلين قلوبهم وتهتز عند سماعه، لأن فيهم طبيعة إنسانية، ولأن تتابع الأصوات على

نسب معينة بين مخارج الأحرف المختلفة، هو بلاغة اللغة الطبيعية التي خُلقت في نفس الإنسان"[١٦]. فكان وقعه على أسماعهم دليله إلى قلوبهم .ولقد ظهر ذلك جلياً على أحد عصاة قريش ممن لانت مشاعرهم وخفقت قلوبهم عند الاستماع إلي شيء من نظمه ونسقه الموسيقى غير أنه قد حال بينه وبينهم ميراث الآباء من معتقدات لها نفوذ و سطوة ، وهكذا صنعت المكابرة بالوليد بن المغيرة الذي ذهب إلى محمد عليه الصلاة والسلام ، ليستمع إلى ما جاء به فعاد بغير الحال التي ذهب بها ، يتمتم بكلمات هي في ذاتها دليل الافتتان بموسقة الكلام ، والمهارة البلاغية التلقائية ، فقال عبارته الشهيرة : " والله لقد سمعت من محمد كلاماً، ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن، وإن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق "[١٧].

ولا عجب أن كان النسق اللغوي في القرآن الكريم بما يحمله من إيقاع وموسيقى على هذا الوجه الفريد المعجز لقدرات العرب ، هو ما اصطفى الله له رسولاً من ولد قريش ، فظهر للعرب أول ما ظهر على لسانه صلى الله عليه وسلم " فجعلت المسامع لا تنبو عن شيء من القرآن، ولا تلوي من دونه حجاب القلب، حتى لم يكن لمن يسمعه بدٌ من الاسترسال إليه والتوفر على الإصغاء ...فإنه إنما يسمع ضرباً خالصاً من الموسيقى اللغوية في انسجامه واطراد نسقه واتزانه على أجزاء النفس مقطعاً مقطعاً ونبرةً نبرةً كأنها توقعه توقيعاً ولا تتلوه تلاوة"[١٨] ؛ لذا لم تكن أقوال النبي

[١٦] – إعجاز القرآن ،١٧٨ .

[١٧] – تفسير الكشاف،الزمخشري، تحقيق خليل مأمون شيحا، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الثالثة، ٢٠٠٩م، ص١١٥٦ .

[١٨] – إعجاز القرآن ، ص١٧٥ .

النبي صلى الله عليه وسلم – المكملة للرسالة السماوية – بعيدة عن تلك المنظومة الإيقاعية . ويمكننا تتبعها على النحو الآتي :

• السجع : هو " تواطؤ الفاصلتين من النثر على حرف واحد " [١٩]. وهذا التعريف المجمل للسجع يشير إلى الصورة الشائعة له وهو ما يعرف بالسجع المتوازي ويتمثل في اتفاق الجمل المتتالية وزناً وتقفيةً ،وهو يخفي بين ثناياه صوراً أخرى ، تختلف عن هذه الصورة اختلافاً طفيفاً في الشكل لكنه يحتفظ بموسيقى السجع . وهذه " الإيقاعات المتوازية عروضياً في آواخر السجعات هى النموذج التي تتطلع إليه الأبصار رغم أنها ليست شرطاً ضرورياً في السجع" [٢٠]

ومما يشاكل هذا قوله صلى الله عليه وسلم :

١– " إذا صَلّتْ المرأةُ خَمْسَها، وصامَتْ شَهْرَها، وحَفِظَتْ فَرْجَها، وأطاعَتْ زَوْجَها، قِيلَ لها :ادْخُلي الجنّةَ مِنْ أي أبوابِ الجنّةِ شِئْتِ".[٢١]

يمكننا تحليله على النحو الآتي:

فَرْجَ – زَوْجَ (فرجها – زوجها)

خَمْسَ – شَهْرَ – فَرْجَ – زَوْجَ

---

[١٩] – الإيضاح ، الخطيب القزويني، وضع حواشيه إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى،٢٠٠٣م ،ص٢٩٦. والتواطؤ هو تكرار الحرف نفسه فى آخر كل جملة . والسجع في النثر يشبه القافية في الشعر، ويعرف فى الاستخدام القرآني بالفاصلة . والسجع ظاهرة صوتية موسيقية ، له نغم خاص ترجع أصوله إلى كلام العرب قبل الإسلام ، ولقد كثر فى القرآن الكريم ؛ ربما لأنه جاء بأسلوب العرب الذين استخدموا هذا السجع بالطبع والعادة والإتقان؛ إمعاناً في التحدي لهم بالعجز عن الإتيان بمثله .

[٢٠] – السجع في القرآن ، ديفن ج .ستيورات ، ترجمة /إبراهيم عوض ، مكتبة زهراء الشرق ،١٩٩٨م ،ص٨٨ . أرى أن استبدال كلمة (الأسماع) بـ (الأبصار) في هذا النص أكثر دقة في هذا السياق الموسيقى .

[٢١] – مسند الإمام أحمد، أحمد بن حنبل(١٦٤–٢٤١هـ) ، حققه الشيخ شعيب الأرنؤوط وعلق عليه عادل مرشد، مؤسسة الرسالة ،ج٣ ، ص١٩٩.

خَمْسَ/ها – شَهْرَ/ها – فَرْجَ/ها – زَوْجَ/ها – قِيلَ ل/ها

يمثل النمط الأول من التحليل السجع المتوازي ، حيث اتفاق أواخر المتواليتين وزناً وتقفيةً في حين يتضمن النمطان الثاني والثالث – بإضافة الضمير – مصطلح (الموازنة أو الازدواج) وهو أن تكون الفاصلتان متساويتين في الوزن دون التقفية [٢٢]. فالكلمات : (خَمْسَ) – (شَهْرَ) – (فَرْجَ و زَوْجَ) ، بينها اتفاق في الوزن العروضي في حين تختلف في حرف الروي [٢٣]. أما مقطع (قيل لها) وإن جاءت زائدة بحركة عروضية في حرف اللام فإنها قد تداخلت نطقاً مع اللام التي سبقتها ، فمثلت مقطعاً يتسق مع ما قبلها من مقاطع . وإيقاع السجع يتسع ليشمل كل ما يشاكله في الصوت ، فهو" يتطابق مع الوزن النبري ، حيث يغلب على كل سجعة أن تحتوي على نفس العدد من نبر الكلمات الموجودة في شريكاتها "[٢٤] .

وفى هذا الحديث حث للمرأة على طاعة الزوج ، وتزيين هذا الأمر لها بوضعه ضمن الفرائض والتكاليف الشرعية كلٌ بحسب ترتيبه . وقد جُمعت هذه الطاعة مع فريضة الصلاة وفريضة الصوم وما أُمرت به من حفظ الفرج والعِرض امتثالاً لقوله تعالى: " وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن" (النور/٣١) ، وقوله تعالى:

---

[٢٢] – الإيضاح في علوم البلاغة ، ص ٢٩٩.

[٢٣] – يعرف القلقشندي الازدواج والموازنة بقوله: أن يختلف حرف الروي في آخر الفقرتين. ويرى أن هذا اللون من الكلام إما ألا تكون الفواصل مقفاة، وإما أن تكون مقفاة تقفية غير دقيقة ولكنها متفقة في الوزن الصرفي. وبعض النقاد يعدون "الموازنة"ضرباً من = ضروب السجع ذاته، وبخاصة إذا كانت قوافيها غير دقيقة، ويسمونها "سجعاً متوازناً". انظر: صبح العشى في صناعة الإنشا، القلقشندي، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة، القاهرة ١٩٦٤م، ص ٢٨٢،٢٨٣.

[٢٤] – السجع في القرآن، ص٨٧.

" والصائمين والصائمات الحافظين فروجهم والحافظات"(الأحزاب/٣٥) . والالتزام بهذه التكاليف والعبادات جميعها جزاؤه الجنة ، تدخلها الزوجة من أي باب شاءت. وكأن هذا الاتفاق الموسيقى الذي جمع فى جرس موسيقي واحد بين هذه التكاليف الشرعية فى حزمة واحدة ، قد أنبأ عن الاتفاق فى الجزاء كذلك .

٢- قوله صلى الله عليه وسلم:

" اضْمَنوا لي سِتَّاً مِنْ أنفُسِكم أضْمَنْ لكُم الجنَّة : اصدُقوا إذا حَدَّثْتُم، وأوفوا إذا وعَدْتُم، وأدُّوا الأمانة إذا ائتُمِنتُم، واحفَظُوا فُروجَكُم، وغُضُّوا أبصارَكُم، وكُفُّوا أيديَكُم" [٢٥]

يمكننا تحليله على النحو الآتي:

غُضُّوا – كُفُّوا

اصْدُقُ/وا – أَوفُ/وا – أَدُّ /وا – احفظ/وا – غُضُّ/وا – كُفُّ/وا

يمثل النمط الأول من التحليل الموازنة والازدواج ، وقد اشتمل على لفظتين ، أما الثاني فقد جمع العديد من الألفاظ – باتفاق الضمير– ليشكل سجعاً متوازياً بتوحد موسيقى الإيقاع .

وهذا الحديث الشريف يحث على بعض الفضائل والشمائل الإنسانية التى لا ترتقي بصاحبها وحسب ، بل تمتد إلى ما يتعلق بالآخرين في حلقة من التعاملات بين الناس يرتقي بها المجتمع ؛ فصدق الحديث ، والوفاء بالوعد ، وأداء الأمانة ، وحفظ الفرج، وغض البصر، وكف اليد عن الأذى والمعاصي . خلائق تبدو فردية ذاتية

[٢٥] – مسند الإمام أحمد، ج٣ ، ص٣٧ .

من جهة ليعود أثرها على المجتمع في صورة تتعدى حدود الفرد إلى تنظيم حياة الجماعة من جهة أخرى. وجزاء الإسهام في تكوين هذا المجتمع الآمن السليم الجنة ، فناداهم الرسول عليه الصلاة والسلام بأنه من يضمن له هذه الجنة في الدنيا يضمن له الجنة في الآخرة. ويندرج في هذه الفضائل ما يحفظ نقاء الحياة الزوجية حاضنة نواة المجتمع . ليس بحفظ الفرج من الدنس خارج الإطار الشرعي فحسب، بل بغض البصر الذي من الممكن أن يؤدي إلى هذا الدنس بما له من أضرار تفسد الأسرة والمجتمع بأسره . هذا إلى جانب الإيحاء باصطفاف أفعال حفظ الفرج وغض البصر مع ما هو مركوز فى الطباع الإنسانية عن قيم الصدق والأمانة والوفاء ونقاء اليد وسلامتها فى كل ما تقدمه للآخرين .

٣- قوله صلى الله عليه وسلم:

" تزوجوا الودود الولود، فإني مكاثر بكم الأمم" [٢٦].

يتمثل هنا السجع المتوازي بين اللفظتين (الودود – الولود) مع ما بينهما من جناس ناقص حيث اختلفا في حرف واحد فقط ، وهو ما عمل على تقوية الصوت ، وتحصيل المجانسة الصوتية وهى من القيم الجمالية.

[٢٦] – السنن الكبرى ، النسائي ، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب (٢١٤-٣٠٣هـ)، تحقيق حسن عبد المنعم شلبي،مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى ،٢٠٠١م، كتاب النكاح، باب النهى عن تزويج المرأة التى لا تلد ، ج ٥ ، ص١٦٠، ١٦١ .

ولست أغفل ذلك التأثير الصوتي المزدوج الواضح في الجمع بين السجع والجناس في اللفظتين حتى أحدث عجباً من تخير الألفاظ المتجانسة نغماً وجرساً ، المتعانقة في أداء المعنى ؛ حين تكون الثانية (الولود) أثراً من الأولى (الودود) ، والأولى سبباً في الثانية ، فيأتي الولد من رحم الود ، مما يحفز على تحصيل المطلوب .

- التكرار : التكرار لون بلاغي كثر استخدامه في القرآن الكريم، وله حضور قوي في قديم الشعر وحديثه ،وهو طريقة من طرائق القول ومآخذه ، وسنة من سنن العرب في كلامهم ، وغرضه الواسع – بأقوال البلاغيين– هو التوكيد والإفهام [٢٧].

وكثر– كذلك– في الحديث النبوي الشريف ولا غرو في ذلك ، ألم يجر به لسانه – صلى الله عليه وسلم– تبليغاً لما أوحى إليه ؟ ألم يكن ولد قريش الذي يتكلم بلسانهم ويعرف لغتهم ويساير مذهبهم في الكلام؟

وفي اللغة (كَرَّرَ) الشيء تكريراً، وتكراراً : أعاده مرة بعد أخرى [٢٨]وفي الاصطلاح يتسع مداه سواء في مفهومه أو وظائفه أو أغراضه . والتكرار – في ملمح منه بصدد هذا البحث وفي أدق وصف له – هو استعمال اللفظ مرتين، في نفس المعنى اللغوي [٢٩].

وهو بذلك يتضمن شرطين لكي يكون تكراراً :

---

[٢٧] – تأويل مشكل القرآن، ابن قتيبة ، شرح السيد أحمد صقر ،ط٢ ، ص ٢٣٣. وانظر كذلك : الصناعتين، أبو هلال العسكري، تحقيق على محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، منشورات المكتبة العصرية، صيدا، ١٩٨٦م، ص١٩٣ .

[٢٨] – راجع المعجم الوسيط ، الجزء ٢، ص٨١٣.

٢٩– خصائص الأسلوب في الشوقيات، محمد الهادي الطرابلسي، الجامعة التونسية، تونس ،١٩٨١م ،ص ٦٢ .

الأول أن يعاد اللفظ نفسه ، والثاني أن يكون هذا اللفظ في نفس السياق ، فإذا " لم يكن المعاد اللفظ نفسه، أو إذا ذُكر اللفظ أكثر من مرة ولكن لكل موضع سياقه الخاص ومعناه الخاص ، فإن ذلك لا نسميه تكراراً أبداً " [٣٠].

ولقد تتسع سياقات أحاديثه صلى الله عليه وسلم ومقامات أقواله لاستيعاب أغراض هذا الفن البلاغي بتعدده وتنوعه. ولقد كان له في خطاب التبليغ ما يدعو إلى هذا الاستخدام حيث تشمل أغراضه ؛ تأكيد الأمر والإشارة إلى أهميته وخطورته، والتحذير من الوقوع في فعل المكرر المحذر منه، والإغراء وزيادة الترغيب في الشيء، وكذلك التهويل والتخويف [٣١].

وفي ضبط أطر العلاقة بين الرجل والمرأة مساحة تتطلب مثل هذه الأغراض وهو ما يمكن أن يحققه التكرار اللفظي في السياقات المستلزمة ذلك، ويمكن بيانه فيما يأتي

أولا تكرار كلمة :

١- قوله صلى الله عليه وسلم :" **خيركم خيركم لأهله ، وأنا خيركم لأهلي** ". [٣٢]

قوام هذا الحديث لفظتان – فقط – مكررتان هما (الخير) و(الأهل) ، حيث تكررت الأولى ثلاث مرات ، والثانية مرتين. ولا ثالث لهما غير ضمير المتكلم – العائد على الرسول صلى الله عليه وسلم – وفي زيادة تكرار لفظة (الخير) على (الأهل)إشارة إلى أن حسن المعاشرة تحيط البيت بأكمله ، أعلاه وأسفله، أوله وآخره . وهى دعوة إلى التأسي بالرسول الكريم ، حيث يُضرب به المثل الأعلى في حسن المعاشرة

[٣٠] – قصص القرآن الكريم ، فضل حسن عباس ، دار النفائس، الأردن ، الطبعة الثانية،٢٠٠٧م ،ص ٧١ .

[٣١] – راجع : التكرار في الحديث النبوي الشريف، أميمة بدر الدين، مجلة جامعة دمشق، المجلد ٢٦، العدد الأول+الثاني ،٢٠١٥م ،ص١٠٢ :١٠٩ .

[٣٢] – سنن ابن ماجة، كتاب النكاح، باب حسن معاشرة النساء ، ص٦٣٦ .

من جهة ، وترغيب في التزود بالخير والتعايش به فيما بين الزوجين من جهة أخرى . ولقد تقاسمت الجملتان التكرار فحملت الأولى مهمة الترغيب في حسن معاملة الزوج لزوجته بشمول الخير فى تصديره الجملة مبتدأً وخبراً . ومن لا يحب أن يكون خير الناس ؟! أما الجملة الثانية فقد أضافت خيراً متمثلاً في الأنموذج النبوي . ومن من الرجال لا يحب أن يكون في بيته كما كان سيد الخلق صلى الله عليه وسلم ؟

ولقد أحدث تكرار اللفظتين ثراءً في الحديث يأخذ من النفس موضعه ، ويُدْخِل حسن المعاملة في حيز التنفيذ . وزاد من هذا الثراء انتقاء لفظتي (الخير والأهل) تحديداً ، مما يُحدِث علاقة تبادلية بينهما ، فالإقبال على حسن المعاملة في البيت يخلق البيت والأهل. وفي الوقت نفسه فإن الأهل هم الجديرون بحسن المعاملة .

٢- قوله صلى الله عليه وسلم :

" الدنيا متاعٌ، وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة". [٣٣]

تكررت لفظة (متاع) وهى تعنى " كل ما يُنتفع به ويُرغبُ في اقتنائه، كالطعام، وأثاث البيت، والسلعة، والأداة، والمال" .[٣٤] ويرتبط مدلولها بالتنعم والاسترواح والانتفاع المحدود ، وهو المعنى الشائع للفظة في الاستخدام القرآني . كما في قوله تعالى: " زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ".(آل عمران/١٤)

[٣٣] –صحيح مسلم، كتاب الرضاع ، باب خير متاع الدنيا المرأة الصالحة ، ص٦٧٢ .

[٣٤] المعجم الوسيط ،ج٢، ص٨٨٧ .

وقوله تعالى: " وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ ". (الرعد /٢٦) ، وقوله تعالى: " يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ" (غافر/٣٩) .

والحديث يبدأ بالتأكيد على أن الدنيا متاع ، وإذا كانت كذلك فإن خير ما يصحب المرء فيها من متاعها ومتعها الزوجة الصالحة دون سواها من المتاع

وفي تكرار لفظة (متاع) تأكيد وتنبيه يدعو الرجل إلى البحث عن هذا المتاع حين يبحث عن زوجة وأليف في الحياة يصحبه صحبة طيبة تكتمل معها متع الدنيا وتعينه عليها . وبخاصة أنها ليست متاعاً وحسب ، بل خير متاع . والإنسان بطبيعته يسعى إلى ما يحقق له المتعة والانتفاع ، فكانت هذه اللفظة التي تحمل هذا المضمون هى التى تم تكررها في الحديث الشريف لبلوغ الغرض .

٣- قوله صلى الله عليه وسلم :

" والذي نفس محمد بيده ، لا تؤدي المرأة حق ربها حتى تؤدي حق زوجها ".[٣٥]

التكرار هنا وقع في لفظتين ؛ واحدة منهما فعل (تؤدي) والثانية اسم (حق) . فإذا وضعت الواحدة إزاء الأخرى أعطت معنى الواجب ، أو وجوب فعل الشيء . وإذا ما تكررت الألفاظ الدالة على ذلك أضافت معها تأكيداً وزيادةً في الحث على أداء هذا الواجب . ولقد وضع هذا التكرار في سياق يجعل حق الله على المرأة مرهوناً بحق زوجها عليها. فكأن التكرار هنا كفتا ميزان يجب ألا ترجح واحدة منهما الأخرى . وتصدير القسم هنا منح الوجوب أهمية وتأكيداً .

٤- قوله صلى الله عليه وسلم :

" ياعلى، لا تُتبع النظرةَ النظرةَ ، فإن لك الأولى، وليست لك الآخرة ".[٣٦]

---

[٣٥] –سنن ابن ماجة، كتاب النكاح، باب حق الزوج على المرأة ، ص ٥٩٥ .

[٣٦] – سنن أبي داود ،أبو داود سليمان الشعث السجستاني (٢٠٢-٢٧٥هـ))، تحقيق محمد ناصر الدين الألباني ، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع ، الرياض ، ج ١ ، كتاب النكاح، باب ما يؤمر به من غض البصر ، ، ص ٣٧٣.

إنه قبل التوجه بالتحليل الفني لتكرار لفظة (النظرة) هنا ، لا يفوتني الإشارة إلى أهمية وضع اللفظتين بهذه الهيئة التي اكتسبت جمالاً من صورة نُسجت من جنس اللفظة المكررة ، تلك الهيئة التي وضعت اللفظتين بشكل متتالي . فقد لا تخطيء العين حين تقع على اللفظة المكررة صورة وجه الإنسان وموضع العينين به . وقد راح يقلب النظر بهما يميناً وشمالاً فيمن حوله . وكأنها تبرز صورة العين التي هى أداة النظرة بلا ضابط أو تحكم . وقد لفت التكرار هنا إلى وجوب التحديد والضبط . فالنظرة الأولى لك لأنها فجائية غير مقصودة ، أما الثانية فلا ترسلها واخفضها حتى لا تدقق بالنظرة الثانية ما فات الأولى . ولست أدري هل صحيح ما وقع في نفسي أن مؤدى التوجيه النبوي الشريف – الذي تخطى استثناء على (كرم الله وجهه) ليكون توجيهاً لشباب المسلمين – الذي نبه بأن النظرة الأولى لك ، وليست لك الثانية والثالثة و...هو في ذاته توجيه باستخدام عين واحدة وغض الأخرى ؟ وهذا ما يؤكده المعنى القرآني " قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ " (النور/٣٠) بالتبعيض . فتكون بذلك لفظة (النظرة) الأولى بمثابة عين لمطالعة الناس عامة، ولفظة (النظرة) الثانية هي العين الثانية التي يجب غضها . ويكون بذلك توجيه الشاب المسلم بأن يحتاط في ذلك بعدم رفع وجهه في مطالعة النساء حتى لا يستخدم العينين معاً .

٥- قوله صلى الله عليه وسلم :

" أُرِيت النارَ، فإذا أكثر أهلها النساء يكفرنَّ . قيل : أيكفرن بالله؟ قال: يكفرن العشير، ويكفرن الإحسان. لو أحسنت إلى إحداهن الدهر ثم رأت منك شيئاً قالت: ما رأيتُ منك خيراً قط ".[٣٧]

[٣٧] – صحيح البخاري، كتاب الإيمان ، باب كفران العشير، ص ١٧.

تكررت لفظة (يكفرن) ثلاث مرات، ولها معنى مذموم يرتبط في الذهن بالكفر والشرك بالله وهى أكبر الكبائر. وهذا هو المعنى الذي تبادر إلى ذهن المخاطبين في الحديث . ولقد ورد أول ذكر للفظة مقترناً بدخول النار جزاءً على هذا الكفر ، فيلمح من السياق أن المقصود بها هنا هو الشرك بالله . ثم تذكر ثانيةً – تصريحاً يحمل المعنى السابق – في السؤال ، قيل: أيكفرن بالله؟ ثم المرة الثالثة في بيان معناها المقصود وهو جحود الزوجة لكل ما يقدمه لها الزوج من خير ومعروف . فنجد لفظة (يكفرن) كأنها قد مرت بثلاث مراحل حتى تستقر في وعى النساء . الأولى مقترنة بعاقبتها في الآخرة وهو نار جهنم، والثانية مقترنة بمعنى الشرك بالله ترويعاً منه ، وله نفس الجزاء، أما الثالثة فجاءت مقترنة بما يوجه به الحديث من سوء طبع بعض النساء ، في عدم مقابلتهن إحسان الزوج إلا بالجحود والنكران . وكأنها خليقة فيهن بدلالة أن أكثرهن من أهل النار . مما يصعب معه النصح والتوجيه، وربما احتاج السياق لزيادة تكرار لفظة(الكفر) لما لمدلولها من وقع يعضد الترهيب لدى النساء، فيسهم في كسر حدة هذا الطبع فيهن.

وإني لأرى أن استخدام هذه اللفظة هنا في سياق الترهيب من تكفير العشير، لا يرمي إلى حصول كف المرأة عن هذا السلوك، فلا تجحد إحسان زوجها، ولا تنكر عليه ما يقدمه لها وحسب ؛ فيكون بذلك تأثرها بالحديث سلباً ، ولكن أرى أنه – يلفت المرأة إلى تثمين ، وتقدير ما يقدمه لها زوجها ، والنظر إليه بعين الرضا والاستحسان ، واستقباله بلسان الشكر . فيكون – بذلك – التأثر إيجاباً.

٦– قوله صلى الله عليه وسلم :

" دينارٌ أنفقتَه في سبيل الله، ودينارٌ أنفقته في رقبةٍ، ودينارٌ تصدَّقْتَ به على مسكين، ودينارٌ أنفقته على أهلِكَ ؛ أعظمها أجراً الذي أنفقته على أهلِكَ".[٣٨]

هذا حديث في بيان فضل النفقة على الزوج والأهل ، ولقد وقع التكرار في لفظتين ؛ (دينار) وهى لفظة تحدد جنس النفقة ، و(أهلك) وهى لفظة تحدد جهة استحقاق هذه النفقة .

ولقد تكررت لفظة (دينار) في أربعة مواضع ، هي نفسها مواضع تحديد جهة المخصوص بالنفقة . ولقد جاء التكرار هنا للتخصيص ، فلكل جهة منها نفقتها الخاصة بها ؛ فمنها ما ينفق في سبيل الله، ومنها ما يُعتق به رقبة، ومنها ما يُتصدق به على مسكين، ومنها ما ينفق على أهل بيته.

ومفهوم أنه ليس المقصود بالدينار هنا تحديد جنس العملة، وقصرها عليها دون غيرها، فهي ليست أكثر من كونها إشارة إلى المال دون تحديد . وينبغي الالتفات إلى أن كلمة (دينار) هنا أكسبها التكرار تفرداً وتميزاً في كل موضع من الأربعة أكثر منه تشابهاً ، ولقد تستمد كل لفظة منها تفردها عن الأخرى بحسب تفرد جهة الإنفاق ، وكلٍ بقدره . أما لفظة (أهلك) فقد أكسبها التكرار مزيداً من التفرد والتميز دون سائر وجوه الإنفاق المذكورة، فهي أعظمها أجراً . على ما في هذه المواضع الثلاثة الأخرى من أهمية ليست بالقليلة .ويضاف إلى هذا الموازنة والعدالة بين جهات الإنفاق المذكورة ، حتى إذا تم تعظيم وتفضيل الدينار الذي ينفق على الزوج والأهل بزيادة الأجر، يكون هو الأكثر تميزاً بينهم جميعاً .

٧- قوله صلى الله عليه وسلم:

" لا يَحِلُّ للمرأةٍ أن تصومَ وزوجُها شاهدٌ إلا بإذنه، ولا تأذَنَ في بيته إلا بإذنه".[٣٩]

[٣٨] – مسلم ، كتاب الزكاة، باب فضل النفقة على العيال والمملوك ،ص٤٤٥.

وقع التكرار في لفظة (الإذن) ، حيث ذُكرت ثلاث مرات . تنوعت بين الاسمية والفعلية

ويمكننا التوقف عند بعض الأمور التي تحققت بتكرار هذه اللفظة :

الأولى، الجرس الموسيقى الناجم عن تكرار لفظة مكونة من هذه الحروف ؛ أما الذال فهو حرف مجهور مرقق، وأما النون فهو حرف مجهور أغن . وتزداد – بالإضافة إلى هذا– نغمة الجرس بتوالي الحرفين مما يحصل معه ما اصطلح القدماء على تسميته بالإخفاء ، وليس هذا إلا محاولة الإبقاء على النون وذلك بإطالتها مما أدى إلى ما نسميه بالغنة. [٤٠]

وهذا اللون الموسيقى يوقع في النفس أن استئذان الزوجة زوجها في الحالتين المذكورتين في الحديث من قبيل الترقق والتودد وليس العنف والتشدد . وكأننا نلمح في الحديث أن اعتياد الزوجة الاستئذان من زوجها يضفى جواً من التناغم والانسجام بين الزوجين .

الثانية إن التكرار ثلاث مرات لهذه اللفظة ، وبخاصة سبقها في مرتين بأداة استثناء، يتضمن التأكيد عليه بدرجة تبلغ حد الواجب والحق .

الثالثة ورود اللفظة – في أحد المواضع– بصيغة الفعل المضارع ، وهى تحمل في طياتها التنبيه على تجدد فعل الاستئذان في كل ما تستقبل الزوجة من أمور تستدعي هذا الاستئذان .

٨– قوله صلى الله عليه وسلم:

---

[٣٩] –صحيح البخاري، باب لا تأذن المرأة في بيت زوجها لأحد إلا بإذنه ، ص ١٣٢٥ .المقصود بزوجها شاهد : أى غير مسافر وغير غائب .

[٤٠] – انظر: الأصوات اللغوية، إبراهيم أنيس، مكتبة نهضة مصر ، ص ٦٢،٦٣.

" ثلاثٌ جِدُّهنَّ جِدٌ وهَزلُهُنَّ جِدٌ : النكاحُ، والطلاقُ ،والرَّجْعة "[٤١]

إن النكاح، والطلاق ،والرَّجْعة ثلاث مسائل تستمد أهميتها من العقد الشرعي الذي يؤسس للعلاقة بين الزوجين وبدونها لا يكون شيء . فإبرام عقد النكاح ، أو فسخه بالطلاق، أو التراجع عن الطلاق برد الزوجة أمور لا تتحمل أى قدر من الشبهة سواء بالمواربة أو الهزل . لذلك نجد أن تكرار لفظة (الجد) ثلاث مرات قد أسبغ لوناً من الصرامة في التعامل مع مثل هذه الأمور . وكأن (الجد) بهذا التكرار يزاحم الهزل فلا يدع له مجالاً.

٩- قوله صلى الله عليه وسلم :

" خيرُ صفوفِ الرَّجالِ أولُها وشَرُّها آخِرهُا ، وخيرُ صفوفِ النساءِ آخرها ، وشَرُّها أَوَّلُها "[٤٢]

يلاحظ في هذا الحديث الشريف تكرار ألفاظه كلها باستثناء الطرفين المعنيين (الرجل والمرأة)، فكل لفظة فيها ذكرت في طرف منهما تكررت في الطرف الآخر . وهذا يعطى انطباعاً بعملية التبادل والعكسية بينهما . فما يعد خيراً عند أحدهما يكون شراً لدى الطرف الآخر والعكس صحيح . وهو تنسيق بين الألفاظ اتسق مع عملية تنسيق الصفوف في الصلاة بين الرجل والمرأة .ولقد يحث تكرار لفظة الخير على الترغيب، ويحث تكرار لفظة الشر على الترهيب والتنفير.

١٠-قوله صلى الله عليه وسلم :

[٤١] -سنن أبي داود، كتاب الطلاق ، باب في الطلاق على الهزل ، ج ٢ ،ص٣٨٢.

[٤٢] – سنن أبي داود،كتاب الصلاة، باب صف النساء وكراهية التأخر عن الصف الأول ، ج ١ ، ص ١٢٢.

" ...أن رجلاً سألَ النبي صلى الله عليه وسلم : ما حق المرأة على الزوج ؟ قال: أن يطعمها إذا طعم ، وأن يكسوها إذا اكتسى ، ولا يضرب الوجه، ولا يقبح، ولا يهجر إلا في البيت ".[٤٣]

انقسم حق المرأة على زوجها في الحديث الشريف قسمين ؛ قسم اتخذ صيغة الإثبات كالمأكل والملبس (أن يطعمها وأن يكسوها) ، والآخر اتخذ صيغة النفي لفظاً (لا يضرب ، ولا يقبح ، ولا يهجر) . لكنها نهى معنىً. فكأنها : لا تضرب ، لا تقبح ،لا تهجر.

وفي كلاهما تكرار. أما ما يتعلق بتأكيد حقها في المأكل والملبس فقد تكرر فيها أداة النصب (أن) وأداة الشرط (إذا) وهى تدخل على الفعل الماضي ، لكنها ظرف لما يستقبل من الزمان. وهى تفيد – في سياق تحديد الحقوق – أن الزوج لا يطعم أو يكسو زوجته مرة واحدة ، أو عدداً من المرات، ولكن حقها عليه متجدد ، متحقق في كل ما استقبل الزوج من إطعام نفسه وكسوتها. ولقد تكرر في هذا القسم– أيضاً– الطعام والكسوة . مرة بالفعل المضارع ومرة بالماضي (يطعمها– طعم) و(يكسوها– اكتسى) . ولقد انسل من التكرار هنا مبدأ المساواة بين الزوج والزوجة . فإذا أطعمها لا يطعمها إلا مما يأكل، وإذا كساها فلا يكسوها إلا مما يكتسي . وهذا الاشتقاق في الألفاظ بين (يطعمها وطعم) وكذلك بين (يكسوها – اكتسى) يصور بجلاء كيف يشق الزوج طعامه وكسوته ليعطي منها زوجته.

أما ما يتعلق بحقوقها التي تصلها بنهى الزوج عن بعض الأفعال الجارحة والمهينة لها ، فقد تكررت الأداة الفاعلة في ذلك ثلاث مرات .

١١- قوله صلى الله عليه وسلم :

[٤٣] –سنن ابن ماجة، كتاب النكاح، باب حق المرأة على الزوج ، ص ٥٩٣،٥٩٤ .

" واستوصوا بالنساء خيراً، فإنهن خلقن من ضلع ، وإن أعوج شيء في الضلع أعلاه ، فإن ذهبت تقيمه كسرته، وإن تركته لم يزل أعوج، فاستوصوا بالنساء خيراً " .[٤٤]

لقد تكرر على مستوى اللفظة المفردة اسمان وحرفان (ضلع ، وأعوج، وإنْ ،إنّ).أما الاسمان فيحملان معنى فيه من الخلقة والطبيعة ما ينبه إلى ثباتها واستحالة تغيرها. فالضلع جزء من الجسم حين يُخلق معوجاً من يمكنه تقويمه؟! وما السبيل إلى تقويمه؟!

والتكرار فيهما يبرز هذا المعنى وينبه إليه ، حتى يتذكر الرجل دائماً في معاملته للمرأة هذا الأمر فيصبر عليها، ويتحملها، دون محاولة لصرف همته إلى محاولة إصلاح هذا العوج؛ لأنه غير ممكن. ويصح أن يوجه جهوده إلى الترفق بها.

أما تكرار أداة الشرط (إن) التي تفيد الشك فإنها تبرز ضعف محاولات الأزواج التي راحت مرة تحاول تقويم الاعوجاج فتكسره، ومرة تحاول تركه على حاله فيظل أعوج ، مما ينتج عنه الارتباك في العلاقة بين الزوجين ، فقد وجه الحديث لذلك بالوصية بالنساء دونما محاولة.

أما تكرار حرف التوكيد (إنّ) ، فهو يزيد المعنى تأكيداً .

١٢–قوله صلى الله عليه وسلم :

" كلكم راعٍ وكلكم مسئول : فالإمام راعٍ وهو مسئول ، والرجل راعٍ على أهله وهو مسئول ، والمرأة راعية على بيت زوجها وهى مسؤولية ، والعبد راعٍ على مال سيده، وهو مسئول ، ألا فكلكم راعٍ وكلكم مسئول " [٤٥].

[٤٤]– صحيح البخاري، كتاب النكاح ، باب الوصاة بالنساء، ص١٣٢١.

[٤٥] – صحيح البخاري، كتاب النكاح ، باب المرأة راعية في بيت زوجها ، ص١٣٢٦ .

لقد كثر التكرار في هذا الحديث الشريف سواء بعدد الألفاظ المكررة ، أو تعدد مواضع تكرارها. وهى كالآتي : تكرر لفظ (كلكم) أربع مرات ، و لفظ (راع) ست مرات ، ولفظ (مسئول) ست مرات ، وضمير الغائب المنفصل أربع مرات.

ولنا مع هذا الاحتشاد للألفاظ المكررة تفسير نوضحه فيما يأتي :

أولاً : هذه نماذج مجتمعية مختارة يمكن أن يقاس عليها أمثلة كثيرة أخرى . المقصود بها كل من ولى شيئاً ، أو كان على رأس شيء فهو في ذمته، ومسئول عنه . لذلك مع هذا الكم المتكرر للألفاظ من الممكن زيادته بإدخال بعض النماذج الأخرى. وهذا ما يؤكده بداية الحديث الشريف وخاتمته، حيث كان التكليف بالرعاية والمسؤولية للكل دون تحديد .

ثانياً : في هذا التكثيف للفظتين (راع) و(مسئول) بيان مدى احتياج مجتمع المسلمين لتوفر الرعاية ، والقدرة على تحمل كل فرد مسؤوليته ، وكأن المجتمع يقول : هل من مزيد؟ وهذا من شأنه خلق مجتمع يحتفظ بمقومات التحضر حين يسوده الأمن والرخاء والتقدم.

ثالثاً : مع كل هذه النماذج المذكورة ، وتكرار عنصري الرعاية والمسؤولية فيها ، لم تتحدد ماهية المسؤولية المنوطة بهم. فتُرك المجال مفتوحاً ؛ ذلك لأن مناط الرعاية والمسؤولية يصح أن يشمل كل شيء دون تحديد. وهذا ما يضمن لكل مسئول النجاح في تحمل المسؤولية ، وإنجاز الرعاية.

وفيما نحن بصدده من علاقة الرجل والمرأة ، فإن الحديث الشريف لم يضع أية تفاصيل عن هذه المسؤولية . فالرجل راع على أهله وهو مسئول . وعدم التحديد هذا يعني الشمول .وكذلك المرأة راعية على بيت زوجها وهى مسئولة دون تحديد . فقد اتسع مجال الرعاية والمسؤولية حتى يعطى كل فرد فيها غاية ما يستطيعه .

رابعاً : تكرار ضمير الغائب البارز المنفصل مع كل نموذج من النماذج المذكورة هو نوع من التأكيد على تكليف كل فرد – بنفسه– بالمسؤولية الموكلة إليه دون محاولة التنصل منها لآخر .

خامساً : لقد تخطى التكرار في هذا الحديث الشريف حدود اللفظة إلى الجملة ، وكأنها توسع من دائرة المسؤولية والرعاية لأهميتها في بناء المجتمع . وهذا ما نتناوله فيما بعد .

١٣–قوله صلى الله عليه وسلم:

"إن لكم من نسائكم حقاً، ولنسائكم عليكم حقاً ".[٤٦]

الحديث الشريف مقسم بين ذِكر للأزواج بتكرار ضمير الخطاب، وذِكر للزوجات بتكرار الاسم الظاهر(النساء)، وتكرار لفظ (الحق) الواجب بينهما .وإذا كان الضمير العائد على الرجال قد تكرر بشكل أكثر من النساء ،فإني أرى أن التعبير بإبراز الاسم(النساء)كان الأقوى وبخاصة في مجاورته لفظة الحق من جهة ، وفي إضافته إلى الضمائر العائدة على الرجال من جهة أخرى. وكأن الحديث بهذه الكيفية يؤكد على حق المرأة ويقدمه ، ويخاطب في الرجل مروءته بضرورة الالتفات إلى من تنتسب إليه زوجةً فلا يبخسها حقوقها

ثانياُ تكرار جملة :

١– قوله صلى الله عليه وسلم :

" كلكم راعٍ وكلكم مسئول : فالإمام راعٍ وهو مسئول ، والرجل راعٍ على أهله وهو مسؤول ، والمرأة راعية على بيت زوجها وهى مسئولة ، والعبد راعٍ على مال سيده، وهو مسئول ، ألا فكلكم راعٍ وكلكم مسئول " [٤٧].

[٤٦] – سنن ابن ماجة، كتاب النكاح، باب حق المرأة على الزوج ، ص ٥٩٤.

كأن المسؤولية والرعاية تمتد معنا لتتخطى حدود التكرار في اللفظ إلى التكرار في الجملة ، ولعل المتأمل في مواضع تكرار جملة (كلكم راع وكلكم مسئول) – وقد بدأ بها الحديث وختم – يدرك الغرض المتحقق من هذا التكرار في هذين الموضعين تحديداً . فنحن نقول : أن فلاناً يتحمل المسؤولية من الألف إلى الياء إشارة إلى الإحاطة بها من أولها إلى آخرها . وأنه يرعى خاصته رعاية شاملة وكاملة .

٢- قوله صلى الله عليه وسلم :

" واستوصوا بالنساء خيراً، فإنهن خلقن من ضلع ، وإن أعوج شيء في الضلع أعلاه ، فإن ذهبت تقيمه كسرته، وإن تركته لم يزل أعوج، فاستوصوا بالنساء خيراً " .[٤٨]

تكررت جملة (استوصوا بالنساء خيراً) . أما من حيث تكرار الجملة ففيه تنبيه وتأكيد واضح على الوصاة بالنساء، فقد استحققن هذا بخلقتهن الضعيفة ، وطبيعتهن المعوجة. وأما من حيث النظر إلى مواضع التكرار، فمن الواضح أن انتقاء بداية الحديث ونهايته تكشف بجلاء روح العطف والحنو التي يحملها الرسول صلى الله عليه وسلم لنساء أمته ، فقد أوصى بهن حرصاً واهتماماً وإشفاقاً. وهذا الحرص مركوز في طباعنا البشرية حين نوصي بشيء مهم في أول كلامنا ، ولا يفوتنا – على سبيل الحرص والاهتمام – معاودة التوصية بنفس الشيء في آخر كلامنا.

ولقد اتخذ بعض العوام من الناس هذا الحديث الشريف دليلاً في مذمة النساء ، وشاهداً على سوء طبعهن . وفي هذا اعوجاج في التفكير، وانحراف بالحديث عن قصده . وما ورد بالحديث الشريف يرمي إلى غير ذلك ، بأكثر من شيء ؛ فمنها

---

[٤٧] – صحيح البخاري، كتاب النكاح ، باب المرأة راعية في بيت زوجها ، ص١٣٢٦ .

[٤٨]– صحيح البخاري، كتاب النكاح، باب الوصاة بالنساء، ص١٣٢١.

مثلاً الابتداء بالوصية والانتهاء بها، وفي هذا التكرار مع موضعه في الحديث تأكيد على مبلغ أهمية الأمر. ومنها – أيضاً– القول الصريح بأن ما بالنساء من اعوجاج فهو من خلق الله ، ومحال أن يكون به قصد إلى سوء الخلق، أو انحراف السلوك. لأن خلقة الله سوية لا نقص فيها أو خلل ، تعالى الله عز وجل عن ذلك . والمرأة بهذا العِوَج كاملة الخلقة . وفهم العوج – هنا– لا يحتاج كثير جهد لنعرف أنه يصف ماتكون عليه المرأة من تقلبات ، وفيض من العاطفة ، والضعف ، والشعور بأنها بحاجة دائمة إلى من تستند إليه ، فهي ليست في صلابة الرجال. وهى الموصوفة بالتعبير النبوي الجميل بالقارورة . ومنها – كذلك– المقابلة بين وضعين يمكن أن يلجأ إليهما الرجل في سبيل التعامل مع المرأة وهى على هذه الحال. الأول أن يذهب لإصلاح هذا الاعوجاج بأن يحاول إقامته ،لكن نتيجة ذلك كسر الضلع المعوج . وما هذا الكسر إلا تأكيد على أن العِوَج صنع إلهي وليس بشري. والثاني أن يتركه حتى لا ينكسر ، فيحتفظ به على حالته من الاعوجاج . وعليه أن يراعى هذا في التعامل معها .

ثالثاً تكرار نمط نحوي :

النمط النحوي تركيب لغوي يتكرر بوزنه لا بلفظه غالباً ، وقد عّرفه الدارسون القدماء بأسماء مختلفة ، فبعضهم سماه الترصيع وآخرون سموه حسن التقسيم ، أما ما نحن بصدده فهو ما سماه المحدثون " تكرار النمط النحوي" ؛ لأنه لا يشترط فيه السجع . ويكثر هذا اللون في الشعر العربي ، وفي القرآن الكريم ، وفي الحديث النبوي الشريف [٤٩]. وهو لون إيقاعي محبب إلى النفس ، ويدل على خبرة بالكلام وصوغه عميقة.[٥٠]

[٤٩] – مثاله من الشعر: ونحن الحاكمون إذا أطعنا ونحن العازمون إذا عصينا

ويمكن التمثيل للاستخدام النبوي لهذا اللون وبخاصة في سياق الترغيب بصدد علاقة الرجل والمرأة ، فهي تتسق معه بإيقاعها الذي يستميل النفس فتحبب إليها ما توجه به. ونمثل له بما يأتي :

١- قوله صلى الله عليه وسلم :

" ...أن رجلاً سألَ النبي صلى الله عليه وسلم : ما حق المرأة على الزوج؟ قال: أن يطعمها إذا طعم ، وأن يكسوها إذا اكتسى ، ولا يضرب الوجه، ولا يقبح، ولا يهجر إلا في البيت ".[٥١]

ونجد هذا النمط يتكرر في : أن يطعمها إذا طعم

أن يكسوها إذا اكتسى

فقد تكررت (أن) المصدرية التي تنصب الفعل المضارع ، المضاف إلى ضمير الغائب في موقع المفعولية ، يليه أداة الشرط (إذا) غير الجازمة ويليها فعل الشرط الماضي .

كذلك تكرار النمط في : لا يضرب

لا يقبح

ونحن التاركون لما سخطنا ونحن الآخذون بما رضينا

وفي القرآن الكريم مثاله قوله تعالى: " يوم يكون الناس كالفراش المبثوث، وتكون الجبال كالعهن المنفوش" .

[٥٠] – راجع : التكرار الإيقاعي في اللغة العربية،سيد خضر ، دار الهدى للكتاب، الطبعة الأولى،١٩٩٨م، ص ٦١:٦٩.

[٥١] –سنن ابن ماجة، كتاب النكاح، باب حق المرأة على الزوج ،ص ٥٩٣،٥٩٤.

لا يهجر

فقد تكررت أداة النفي مع الفعل المضارع .

٢- قوله صلى الله عليه وسلم :

"ما استفاد المؤمن بعد تقوى الله خيراً له من زوجة صالحة. إن أمرها أطاعته ، وإن نظر إليها سرته، وإن أقسم عليها أبرته ".[٥٢]

والنمط النحوي المتكرر يتمثل في جملة الشرط كاملة بأداة الشرط وفعل الشرط وجوابه بصيغة الماضي .

إن أمرها أطاعته

إن نظر إليها سرته

إن أقسم عليها أبرته

٣- قوله صلى الله عليه وسلم :

" إذا صَلّتْ المرأةُ خَمْسَها، وصامَتْ شَهْرَها، وحَفِظَتْ فَرْجَها، وأطاعَتْ زَوْجَها، قِيلَ لها : ادْخُلي الجنّةَ مِنْ أي أبوابِ الجنّةِ شِئْتِ".[٥٣]

وتمثل النمط هنا في تكرار أداة الشرط مع فعل الشرط بصيغة الماضي الذي اتصلت به تاء التأنيث ، وتلاه المفعول به، وبخاصة النمط الذي حذف فيه أداة الشرط والفاعل لسابق ذكرهما. مع تحقق السجع في التركيب .

إذا صلت المرأة خمسها

[٥٢] – سنن ابن ماجة، كتاب النكاح، باب أفضل النساء، ص٥٩٦.

[٥٣] – مسند الإمام أحمد ،ج٣ ، ص١٩٩.

وصامت ...شهرها

وحفظت ...فرجها

وأطاعت ...زوجها

٤- قوله صلى الله عليه وسلم :

" اضْمَنوا لي سِتَاً مِنْ أنفُسِكم أضْمَنْ لكُم الجنَّة : اصدُقوا إذا حَدَّثْتُم، وأوفوا إذا وعَدْتُم، وأدُّوا الأمانة إذا ائتُمِنتُم، واحفَظُوا فُروجَكُم، وغُضُّوا أبصارَكُم، وكُفُّوا أيديَكُم".[٥٤]

ويتمثل النمط هنا في موضعين بعد مبادلة الضمان بين الرسول صلى الله عليه وسلم والمخاطبين فى الطلب وجوابه : اضمنوا لي ستاً ، اضمن لكم الجنة :

(الموضع الأول) اصدُقوا إذا حَدَّثْتُم

وأوفوا إذا وعَدْتُم

وأدُّوا إذا ائتُمِنتُم

(الموضع الثاني) واحفَظُوا فُروجَكُم

وغُضُّوا أبصارَكُم

وكُفُّوا أيديَكُم

نخلص مما سبق من نماذج بصدد توظيف أسلوب التكرار فيما يتعلق بالرجل والمرأة معاً ترغيباً أو ترهيباً إلى أن التكرار أداة فاعلة من أدوات الإيقاظ والتنبيه. ومن المواقف الداعية له ما يمثل أهمية وشأناً في الحياة الروحية والنفسية ، فتقتضي

[٥٤] -مسند الإمام أحمد ، ج ٣٧ ،ص ٤١٧.

الحال أن يقابل هذا الموقف بما ينبغي له الحضور النفسي والعقلي، وهذا لا يكون إلا بالتنبيه على هذا الموقف والدعوة له، والهتاف به.[٥٥]

"والنبي صلى الله عليه وسلم يدرك تماماً الأمور الضرورية التي يحتاج إلى توكيدها وإلى ترسيخها في الأذهان، فاستعمل التكرار ليدل على ذلك، ولا يكون ذلك التنبيه إلا على الأمور التي تهم الأمة وتعظم العناية بها، ويخاف المتكلم وقوع السامع في الخطأ حال عدم تكراره لها "[٥٦].

ويتميز تكرار النمط النحوي – بالإضافة إلى ما سبق – باللون الموسيقي ، وإيقاعه المحبب إلى النفس . وهذا ضرب يستميل الأذن العربية التي تألف هذا اللون من الكلام.

٥– قوله صلى الله عليه وسلم :

" لا تَزَوَّجُوا النِّسَاءَ لِحُسْنِهُنّ . فعَسَى حُسُنهن أن يُرْدِيهُنّ . ولا تَزَوَّجوهن لأموالهن . فعسى أموالَهن أن تُطْغِيهن . ولكن تزوجوهن على الدين" .[٥٧]

يتمثل النمط المتكرر فيما يأتي:

لا تَزَوَّجُوا النِّسَاءَ لِحُسْنِهُنّ فعَسَى حُسُنهن أن يُرْدِيهُنّ

لا تَزَوَّجوهن لأموالهن فعسى أموالَهن أن تُطْغِيهن

هذا واحد من الأحاديث النبوية الكثيرة التي تمثل التوجيه النبوي الشريف بالتأكيد على أهمية حسن تخير الزوجة ؛ لما في ذلك من آثار على الأسرة والمجتمع والأمة بأسرها. وقد تختلف رؤى الرجال وتتحكم عند الاختيار، فتنزلق إلى ما لا يحمد عقباه . فحمل هذا الحديث الشريف تكراراً في النمط النحوي بالنهى عن الاتجاه ناحية

[٥٥] – إعجاز القرآن، عبد الكريم الخطيب ، دار الفكر العربي، القاهرة، الطبعة الأولى، ص٧٧ .

[٥٦] – التكرار في الحديث النبوي الشريف، ص ١٠١ .

[٥٧] –سنن ابن ماجة ، كتاب النكاح ، باب تزويج ذات الدين ، ص ٥٩٧ .

مقاييس خاطئة عند الاختيار ، وكذلك تكررت عواقب ذلك الاختيار . ولقد أتاح هذا التكرار إبراز سوء الاختيار بعرضه إزاء نتائجه ؛ فاختيار الزوجة الجميلة فقط ربما يوقعها جمالها في الهلاك بالإعجاب بنفسها والتكبر . واختيار الزوجة الثرية فقط ربما يوقعها مالها فى المعاصي والآثام ، لكن الزوجة ذات الدين هي التي تحيط نفسها وأسرتها بسياج من تعاليم الدين التي تعصمها من الشرود خارجه. ولقد عمل التكرار على التأكيد على حصول النتيجة السيئة نفسها عند الخطأ في الاختيار على أساس غير الدين.

ب-محسنات المعنى

تختص محسنات المعنى في الكلام بتهيئته بشكل يروق المتلقى، ويمهد لقبوله في الأفهام ، ويسهم بقدر في درجة التأثر به، فهو معنيٌ – وفق توضيح القز ويني- بتزيين المعنى بألفاظ بديعية من الجمال المعنوي.[٥٨]وهى" التي يكون التحسين بها راجعاً إلى المعنى قصداً، وإلى اللفظ عرضاً ؛ لأنه كلما أفيد باللفظ معنى حسن تبعه، حسن اللفظ الدال عليه"[٥٩]. يفهم من هذا – وغيره مما سبق في التعريف بعلم البديع- أنه لا يؤثر في معنى الكلام ، إنما يمنحه ما يسكنه في القلب والنفس فيقر مقامه، ويوطن موطنه من الأفهام .وهذا يفضي بنا إلى ضرورة الاستناد إلى مثل هذه الأدوات في التعبير ، وإدراك دورها الذي يصل إلى كونه " من الحدود القصوى في البلاغة"[٦٠] . وكأنها التتمة في التبليغ.

[٥٨] – انظر: الإيضاح، ص٥ .

[٥٩] –علوم البلاغة العربية ، محمد أحمد ربيع ، دار الفكر، عمان، ط١٩٩١،١م ، ص ١٦١ .

[٦٠] – التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر ،١٩٨٤م الكتاب الأول ،ج١،ص ٦٨ .

نقف منه في البيان النبوي بصدد موضوعنا على **الطباق والمقابلة** ،وهما من جنس واحد، ويؤديان معنى واحداً ، إلا أن الطباق جمع بين متضادين أى معنيين متقابلين في الجملة ، والمقابلة أن يؤتى بمعنيين متوافقين أو أكثر، ثم بما يقابل ذلك على الترتيب [٦١].

وفي الحديث النبوي الشريف نجد استخداماً رائقاً فريداً لهذا اللون البلاغي ، يسترعى الالتفات والتأمل ، يمكن استجلاؤه فيما يأتي :

١- قوله صلى الله عليه وسلم:

" ثلاثٌ جِدُّهنَّ جِدٌ وهَزلُهُنَّ جِدٌ : النكاحُ، والطلاقُ ،والرَّجْعة "[٦٢]

بين (جدهن) و(هزلهن) تضاد صبغ الحديث بقيمة مضمونه، ووجه الانتباه إليه ، وذلك في ملمحين؛ الأول ما بين لفظتي التضاد فى الهزل الصريح الذي يقابل الجِد الصريح دون مواربة ، فلا دخيلٌ بينهما . فأمور النكاح، والطلاق، والرجعة، لا يتقاسمها إلا الجد أو الهزل ولا ثالث لهما . والثاني أنه باستخدام ألفاظ التضاد مع تكرار لفظة (جد) وبالنمط النحوى الواحد المتشكل في المبتدأ الثاني والخبر (جدهن جد) و(هزلهن جد) فيه ما يشبه مخالفة التوقع اللفظي من صورة الكلام . فقد يكون من المتوقع لدى السامع أن يكون الكلام على نحو : ثلاث جدهن جد، وهزلهن هزل. فيلتفت السامع إلى صوت المخالفة غير المتوقعة ، فإذا عرف الأمر المذكور أخذه بصورة جادة التى لا يصح أن يشوبها هزل.

٢- قوله صلى الله عليه وسلم :

" ياعلى، لا تُتبع النظرةَ النظرةً ، فإن لك الأولى، وليست لك الآخرة ".[٦٣]

---

[٦١] –انظر: التلخيص ، ٣٤٨،٣٥٢.

[٦٢] –سنن أبي داود، كتاب الطلاق ، باب في الطلاق على الهزل ، ج ٢ ،ص٣٨٢.

توجد مقابلة اثنين باثنين : (لك وليست لك) و(الأولى و الآخرة) والسياق يبرز المقابلة التي توضح الحكم بين النظرتين ، فيما هو لك أو عليك. فالنظرة الأولى لا ذنب فيها لأنها لا ينتج عنها ضرر التأمل والتدقيق ، أما الآخرة فقد يمر خلالها كل ما يقع منه الضرر والإثم .والمقابلة هنا توضح الفرق بين النظرتين.

٣- قوله صلى الله عليه وسلم :

"خيرُ صفوفِ الرَّجالِ أولُها وشَرُّها آخِرهُا، وخيرُ صفوفِ النساءِ آخرها، وشَرُّها أَوَّلُها [٦٤]"

في الحديث الشريف طباق ومقابلة ، تشمل الحديث بأكمله. فكأنما قُسِّمَ قسمين متقابلين على صورة اصطفاف :

القسم الأول : خيرُ صفوفِ /الرَّجالِ / أولُها / وشَرُّها /آخِرهُا

القسم الثاني : خيرُ صفوفِ /النساءِ / آخرها / وشَرُّها / أَوَّلُها

ويكثر التضاد في القسمين ؛ ففي القسم الأول تضاد بين (خير) و(شر) ، وكذلك بين (أولها) و(آخرها) .وفى القسم الثاني يوجد التضاد نفسه .

ويوجد بين القسمين – أيضاً– مقابلة ثلاثة بثلاثة ، (الرجال والنساء) ،(أولها وآخرها) ، (آخرها وأولها) مقابلة تضع القسمين إزاء بعضهما البعض ، وكأنها مرآة تعكس الصورة، فاصطفاف الرجال في الصلاة يقابله اصطفاف للنساء ، مقابلة لا يمكن معها تصور الاختلاط أوالعشوائية أو إمكانية التداخل. وهذه المقابلة بهذا الحشد الكبير في الألفاظ المتضادة من جهة، والجمل أو المعاني المتقابلة من جهة

---

[٦٣] – سنن أبي داود ، كتاب النكاح، باب ما يؤمر به من غض البصر ، ج ١، ص ٣٧٣.

[٦٤] –السنن الكبرى، كتاب الصلاة، باب ذكر خير صفوف النساء، وشر صفوف الرجال ،ص ٤٣٤.

أخرى ، عكست بشكل بديع المقابلة في تقسيم صفوف الرجال والنساء، والكيفية التي ينبغي أن تكون عليها من فصل أحدهما عن الآخر.

٤- قوله صلى الله عليه وسلم :

"إن لكم من نسائكم حقاً، ولنسائكم عليكم حقا ".[٦٥]

ثمة مقابلة اثنين باثنين في الحروف ؛ (لكم – عليكم) و(من نسائكم – لنسائكم) وهى تصور بجلاء التوازن والعدل في توزيع الحقوق بين الرجال والنساء في الزواج . فلا جور ولا ظلم ممكن أن يصيب جانب المرأة ، وكأن الحديث الشريف بهذه المقابلة يلفت الرجل إلى عدم بخسها الحقوق التي يطلبها لنفسه منها .

ثالثاً التراكيب

أ- **الخبر والإنشاء:**

تنوعت الأساليب البلاغية – فيما نحن بصدده – بين الخبري والإنشائي ألطلبي، أمر ونهى ونداء.[٦٦]وإذا حاولنا تمييز الخبري والإنشائي من الأحاديث موضع الدراسة لاضطررنا إلى إعادة ذكر كل الأحاديث السابق التوقف عندها مع ما سبق تكراره في مواضع أخرى؛ لذلك نقف عند بعضها ،وبخاصة إذا ما كان يجمع أكثرها تصنيف واحد ، وتوجيه بلاغي واحد. ويمكننا تناولها بالكيفية الآتية:

- **أسلوب الشرط بين الإخبار والإنشاء:**

يتنازع أسلوب الشرط – بين المعنى الخبري والإنشائي – ثلاثة اتجاهات ؛ اتجاه يعد الجملة الشرطية من أقسام الجمل، ومنهم الزمخشري الذي جعلها قسماً مستقلاً بذاته ؛ لأن طبيعة صيغتها، وفي أداء معناها، ما يميزها عن جملتي الخبر والإنشاء.[٦٧]

---

[٦٥] – سنن ابن ماجة، كتاب النكاح ، باب حق المرأة على الزوج ،ص ٥٩٤.

[٦٦] – لم أعثر في الأحاديث – موضع الدراسة – من الإنشاء الطلبي الاستفهام والتمنى. وكذلك الإنشاء غير الطلبي.

[٦٧] – انظر: نحو المعاني، أحمد عبد الستار الجواري، ١٩٨٧م،ص ١٠٨.

واتجاه يعدها جملة خبرية لأنها تقوم على أساس علاقة الإسناد، ومقيدة بشرط الإخبار، ولقد ذهب إلى ذلك غالبية قدامى البلاغيين اتباعاً لغالبية النحاة . واتجاه ثالث يُحَدَّد تصنيفها خبراً أو إنشاءً بحسب جواب الشرط ؛ لأن عليه مدار الشرط ، فإذا ورد جواب الشرط بصيغة الإخبار تحدد الأسلوب خبرياً ، وإذا ورد بصيغة الإنشاء عد إنشائياً .[٦٨]

ولقد استخدم البيان النبوي الشريف في سياق الترغيب والترهيب ، من أدوات الشرط الجازمة وغير الجازمة ، ثلاث أدوات ؛ إذا – مَنْ – لو .

والأداتان (إذا) و(من) سواء جاء فعل الشرط وجوابه معهما ماضياً أو مضارعاً أفاد معنى المستقبل، ويكون الفعل الماضى حينئذ مفيداً للتحقيق . كما في قوله صلى الله عليه وسلم :

" **إذا صَلّتْ المرأةُ خَمْسَها، وصامَتْ شَهْرَها، وحَفِظَتْ فَرْجَها، وأطاعَتْ زَوْجَها، قِيلَ لها : ادْخُلي الجنّةَ مِنْ أي أبوابِ الجنّةِ شِئْتِ**".[٦٩] فقد ارتهن دخول المرأة الجنة من أى باب من أبوابها شاءت بالتزامها نوعاً من الأعمال مجتمعة ؛ هى أداء الصلاة ، وصيام شهر رمضان ، وصون عفتها ، وطاعة زوجها .فقد تعدد فعل الشرط بالمعطوفات لنيل عطية واحدة متمثلة في جواب الشرط وهو الجنة. وذلك ترغيباً لها في الحرص على أداء هذه الأعمال التى إذا أدتها كلها لم يكن عليها شيء آخر للفوز بهذا الجزاء [٧٠].

---

[٦٨] –يراجع : حسن الابتداء والانتهاء في سور القرآن الكريم، مخطوط ماجستير إعداد وفاء فيصل ، كلية الآداب، جامعة الموصل، ١٩٨٨م،ص ١١٨ .

[٦٩] – مسند الإمام أحمد، ج٣ ، ص١٩٩.

[٧٠] – جدير بالذكر هنا بيان وجه إضافة (خمس وشهر) إلى الضمير العائد على المرأة ، فإذا كان يصح نسبة الفرْج والزوج لها بالتنسيب والإفراد ، فكيف يصح هذا في الصلوات الخمس ، وصيام شهر= رمضان؟ فالصلاة

وكذلك في قوله صلى الله عليه وسلم :" **إذا دعا الرجلُ امرأتَه إلى فِراشِه، فأبت أن تَجِئَ ؛ لعَنَتْها الملائكةُ حتى تُصبِحَ**".[٧١] لقد جُعلت لعنة الملائكة جزاءً لمن تتأبى على فراش زوجها . والفراش هنا كناية عن المعاشرة الزوجية ، بيّنها فعل الشرط (دعا) وفيه طلب المعاشرة ، حيث لا يصح قبولها على أنه يدعوها لكي تبات في مكانها بجواره كما تجرى العادة. وفى هذا الرفض إثارة لغضبه . وهنا زجر وترهيب لتلك المرأة التى إذا طلبها زوجها ولم يجدها . ولقد وقع الجزاء باللعن لمن لم تعف زوجها وتحصنه من الوقوع في الزلل .

ولقد حرصت السنة النبوية المطهرة على هذا التحصين للفرد والمجتمع في غير موضع ، بالترهيب مرة ، والترغيب أخرى. فقد قال صلى الله عليه وسلم في هذا المعنى :

"**إذا الرجلُ دعا زوجتَه لحاجتِه ؛ فلْتَأتِهِ وإن كانت على التنور**". [٧٢]

والحديث هنا ليس على سبيل الإخبار، لأن جواب الشرط جاء إنشاءً بالأمر في تلبية رغبة الزوج مهما كانت المرأة مشغولة بعمل مهم أو صعب . فالحديث يحثها على ضرورة إجابته لطلبه .

ولقد استخدمت أداة الشرط (من) لإفادة المعنى الإخباري في الحث والزجر فيما يكون بين الرجل وزوجته ، كما في قوله صلى الله عليه وسلم :

والصيام لم تنفرد بهما المرأة وحدها دون الرجل ، فيكون الكلام : إذا صلت المرأة الخمس ، وصامت الشهر . وقد جاء الحديث الشريف بهذه الصيغة لبيان أن فرض المرأة من الصلاة والصيام ليس كاملاً اكتماله عند الرجل ، لطبيعتها التى خُلقت عليها .فلها خمس خاصة بها ، كما أن لها شهراً كذلك .إذا أدتهما كما فُرض عليها نالت عنهما نفس جزاء من أداها كاملةً .

[٧١] –صحيح البخاري، كتاب النكاح، باب إذا باتت المرأة مهاجرة فراش زوجها، ص ١٣٢٤.

[٧٢] – الترمذي، كتاب الرضاع، باب حق الزوج على المرأة، ص ٤٥٦.

"من أفسدَ امرأةً على زوجها فليس منا". [٧٣]

فعل الشرط الماضي هنا يفيد الاستقبال والتحقيق في وقوع الفعل أيضاً . ولقد أخبر الحديث الشريف بأن الرسول صلوات الله عليه وسلامه قد تبرأ ، وأخرج من ملة المسلمين كل من راود امرأة متزوجة عن نفسها، أو أفسدها على زوجها بأي شكل . فصيغة فعل الشرط تعنى كل ما استقبل من جنس العمل .

وكذلك في قوله صلى الله عليه وسلم :

" من كانت له امرأتان فمالَ إلى إحداهُما : جاءَ يومَ القيامةِ وشِقُّه مائلٌ". [٧٤]

فقد قصد فعل الشرط بصيغة الماضي كل من فعله فيما مضى أو يفعله فيما يستقبل من حياته ، ومضمون الترهيب هنا واقع على من لا يعدل بين زوجاته ، فيميل لواحدة عن الآخرى ، مقصراً في حقوقها . فقد وقع عليه الجزاء بأن يلقى الله مشوهاً عن طبيعته لما اقترفه .وكأنه يتمثل لنا بشق سليم بما كان يمنحه لواحدة ، وبشق مائل عن طبيعته بما كان يقصر في حق الأخرى " إن مجيئه يوم القيامة بشق مائل يعرضه إلى خطر السقوط عند مروره على الصراط ،ويفضحه على رؤوس الخلائق فيعلمون أنه كان ظالماً لزوجته "[٧٥]

ولقد استخدمت أداة الشرط (لو) في موضع واحد من ضوابط العلاقة بين الرجل والمرأة. ذلك في الحديث الشريف : **" لو كنتُ آمراً أحداً أنْ يسجُدَ لغير الله ؛ لأمرتُ المرأةَ أنْ تَسجُدَ لِزَوجِها".** [٧٦]

---

[٧٣] –مسند الإمام أحمد ،ج ١٨ ، ٨٠ .

[٧٤] – سنن أبي داود ، كتاب النكاح، باب فى القسم بين النساء،ص ٣٧٠.

[٧٥]– التصوير الفني في الحديث النبوي، محمد لطفي الصباغ، المكتب الإسلامي، الطبعة الأولى،١٩٨٨م ، ص١٣٧ .

[٧٦] – سنن ابن ماجة، كتاب النكاح، باب حق الزوج على المرأة، ص٥٩٥.

وأدة الشرط (لو) هي حرف امتناع لامتناع ، ومعنى ذلك أن الجملة التي تأتي بعدها مجرد افتراض، إذ تفيد امتناع حدوث الجواب لامتناع الشرط [٧٧]. لذلك جاء فعل الشرط وهو السجود لغير الله ، جوابه سجود المرأة لزوجها. أما سجود المرأة لزوجها فلم يتحقق بعدم تحقق السجود لغير الله عز وجل . وهى عملية افتراضية، أراد بها الرسول صلى الله عليه وسلم بيان عظم حق الرجل على زوجته الذي يكاد يصل أن تسجد له طاعة وامتثالاً لأوامره . وبيان مدى ما للرجل على امرأته من الدخول في طاعته لا يدل عليه في تقريب معناه إلا السجود، والحديث عن السجود لا يمكن أن يكون إلا بافتراضه على سبيل التخيل وليس الحقيقة. وهذا المعنى لا تؤديه من سائر أدوات الشرط إلا الأداة (لو) .

أما ما ورد في قوله صلى الله عليه وسلم:

" أيمُّا امرأةٍ سألت زوجها طلاقاً بغير بأس فحرامٌ عليها ريح الجنة"[٧٨].

فقد جاءت جملة شرطية بالأداة (أى) ، وفعل الشرط وسببه (سألت) وهو فعل ماض يفيد كل مايقع في المستقبل ،ليرسل حكماً على أى امرأة تسعى أو تطلب طلاقها من زوجها دون سبب يحمل لها ضرراً ما بإمساكها، فقد حرمت عليها ريح الجنة. وفى جواب الشرط هذا تغليظ للجزاء مهيب . وهو فعل بما يحمل من إمكانية التهاون فيه، وعدم إدراك بعض النساء لعواقبه، بما عرفت به المرأة من عاطفة تجرها لقرارات سريعة غير متعقلة ، استوجب هذا تشديد العقوبة الرادعة ، وهى ليست الحرمان من الجنة ، ولكن تحريم ريحها ،أي مجرد الاقتراب منها ؛ لأن الطلاق عند الله أمر

[٧٧] – انظر: النحو المصفى، محمد عيد، مكتبة الشباب ، ط الأولى ، ١٩٧١م ، ص ٣٩١ .

[٧٨] – سنن ابن ماجة ، كتاب الطلاق ، باب كراهية الخلع للمرأة ،ص٦٦٢ .

عظيم ، وهو بالوصف النبوي أبغض الحلال إلى الله. لما يترتب عليه من تفكك أسرى ، يشيع معه مجتمع غير سوى .

- **الأسلوب الإخباري :**

تحمل الجمل الخبرية في هذا الصدد ما يَسُر فنقبل عليه، وما يُسيء فننفر منه ونتجنبه.

فالخبر قد يدفع بصياغته إلى الإقبال أو الابتعاد بدرجة تفوق الأمر و النهى بصورتهما المباشرة الصريحة . والملاحظ في الأحاديث ذات المعاني الإخبارية أنها تُعَّرِفُ من لا يعرف ، فالخبر هنا ابتدائي لمخاطب ليس له سابق علم به ، وذلك لكى يفتح أمام المخاطب سبيلاً لم يكن يلتفت إليه ، فإذا عرفه أخذ به أو تجنبه . مثال هذا في البيان النبوي الشريف في قوله صلى الله عليه وسلم :

" **إنما الدنيا متاع، وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة**". [٧٩]

أما الجملة الأولى ففيها أسلوب قصر؛ قصر الموصوف (الدنيا) على الصفة (المتاع) ، وهى تختزل طبيعة الدنيا في معنى واحد هو المتعة . وجاء القصر بالأداة (إنما) لإفادة الإخبار عن أمر لا يجهله المخاطب[٨٠]. وهى جملة قائمة بنفسها ، لكنها في الوقت نفسه تعد تمهيداً للجملة الخبرية الأخرى التي جعلت المرأة الصالحة في قمة هذا المتاع ، بإخبار ابتدائي ليس للمخاطب به سابق علم . وهذا الحديث يوجه الرجل بحسن الاختيار ، فإذا أراد الزواج فلتكن الزوجة الصالحة التى تمثل له بذلك خير ما في الدنيا كلها من متاع .

[٧٩] –صحيح مسلم، كتاب الرضاع ،باب خير متاع الدنيا المرأة الصالحة، ص، ٦٧٢ .

[٨٠] –انظر: التلخيص ، ص ١٤٨ .

وهو نفس الحث على اختيار الزوجة الصالحة في الحديث الشريف فى قوله صلى الله عليه وسلم:

"**ما استفاد المؤمن بعد تقوى الله خيراً له من زوجة صالحة. إن أمرها أطاعته، وإن نظر إليها سرته، وإن أقسم عليها أبرته** ".[٨١] فقد أفاد الخبر في الحديث العلم بأن أهم ما يعين الرجل في حياته ، وأكثر ما يفيده بعد تقوى الله الزوجة الصالحة .وليس أدل على أهمية هذا الاختيار عند الزواج من استثنائها دون أي شيء آخر في الدنيا لتكون تالية لتقوى الله .

وفي السياق نفسه ورد في الحديث الشريف:

" **تُنْكَحُ النِّسَاءُ لِأَرْبَعٍ: لِمَالِها، ولِحَسَبِها، ولِجَمَالِها، ولِدِينِها . فاظْفَرْ بِذَاتِ الدينِ تَرِبَتْ يَدَاكَ**"[٨٢]

و يخبر بأن المرأة تُنكح لأربع مكتسبات : المال ، والحسب ، والجمال ، والدين. ممكن أن تكون مجتمعة فيها ، وممكن أيضاً كون واحدة فقط منها جديرة بأن تكون سبباً في الإقبال عليها.

وبعد تقديم العلم بالأمر والإخبار به ، فإذا ما أتيح للرجل واحدة من هذه الصفات فليختر ذات الدين ، ويقدمها على صاحبة المال، وصاحبة الحسب، وذات الجمال .ولقد جاءت الجملة الإخبارية هنا ممهدة للجملة الإنشائية التي تحمل حثاً وتفضيلاً بتباشير الفلاح والنجاح في صيغة الأمر (فاظفر بذات الدين) التي زاد في الحث عليها الدعاء (تربت يداك) .

وفى قوله صلى الله عليه وسلم :

---

[٨١] – سنن ابن ماجة، كتاب النكاح، باب أفضل النساء، ص٥٩٦.

[٨٢] – سنن ابن ماجة، كتاب النكاح، باب تزويج ذات الدين، ص٥٩٤.

" **خَيْرُكُم خَيْرُكُم لِأَهْلِهِ ، وَأَنَا خَيْرُكُم لِأَهْلِي** ". [٨٣]

جملتان خبريتان منفصلتان في أداء المعنى . حيث أخبرت الأولى بأن خير الرجال من كان أحسنهم تعاملاً مع زوجته ، طيب المعشر. وجاءت الثانية لتستقل بالخبر الذي أضاف تأكيداً على الغرض والمطلوب السابق ، بتقديمه النموذج الأمثل في التأسي بالرسول صلى الله عليه وسلم والاقتداء به حين تخبرنا بأنه خير الرجال في حسن المعشر والمعاملة لأهله .

وفي قوله صلى الله عليه وسلم :

"**خيرُ صفوفِ الرَّجالِ أولُها وشَرُّها آخِرهُا، وخيرُ صفوفِ النساءِ آخرها، وشَرُّها أَوَّلُها** "[٨٤]

ما يبين فى الإخبار عنه ما يجعلنا نعرف الخبيث من الطيب بين الرجل والمرأة عند الاصطفاف في الصلاة . فالجمل تخبر بأبسط صور الخبر وأنواعه أن خير صفوف الرجال أولها ، ليحرص كل منهم على الصف الأول ، وهذا لسببين ؛ الأول حث الرجال على سرعة الذهاب إلى المسجد للصلاة ، والصف الأول دليله. والثاني أنه باصطفافه في الصف الأول يبعد عن مكان تواجد النساء، لذلك فشر صفوف الرجال آخرها .والجملة الخبرية الثانية تحمل نفس الغرض بالنسبة للنساء .

[٨٣] – سنن ابن ماجة، كتاب النكاح، باب حسن معاشرة النساء ، ص٦٣٦ .

[٨٤] – السنن الكبرى، كتاب الصلاة، باب ذكر خير صفوف النساء، وشر صفوف الرجال، ص ٤٣٤.

ومن الأساليب الخبرية أيضاً ما حمل الإعلام بشر الناس عند الله ، وذلك تنفيراً من الفعل المؤدي إلى هذا . وهو نشر أسرار ما يجري في المعاشرة الزوجية وتفاصيل ذلك للغير؛ لأنها تحمل في طياتها شراً يطيح بهذه الحياة الزوجية ، وسُمَّاً يشيع بين الناس .

"إن من أشر الناس عند الله منزلة يوم القيامة، الرجل يفضي إلى امرأته، وتفضي إليه ثم ينشر سرها".[٨٥]

ولقد جاء الإخبار هنا بأداة تأكيد ، وتعرف بالخبر الطلبي ، ويستخدم لمخاطب متردد في العلم بالشيء ، فيعرفه ولا يتثبت منه [٨٦].لأن الرجل يمكن أن يحيط بصدره وعلمه ما في هذا الفعل من ضرر وسوء تصرف ، لكنه لا يرتجع عن ذلك لعدم الانتباه إلى مردوده .

- **الأسلوب الإنشائي :**

ويتقاسمه الأمر والنهى ، والنداء فيه قليل . ذلك لارتباط الأمر والنهى بالحث والمنع في سياق الترغيب والترهيب . ومما جاء بصيغة الأمر قوله صلى الله عليه وسلم :

" واستوصوا بالنساء خيراً، فإنهن خلقن من ضلع ، وإن أعوج شيء في الضلع أعلاه ، فإن ذهبت تقيمه كسرته، وإن تركته لم يزل أعوج، فاستوصوا بالنساء خيراً " .[٨٧]

---

[٨٥] – صحيح مسلم،كتاب النكاح، باب تحريم إفشاء سر المرأة ، ص٦٥٤.

هكذا وقعت الرواية: أشر، بالألف . وأهل النحو يقولون: لا يجوز أشر وأخير . وإنما يقال : هو شرٌّ منه وخيرٌ منه . قال : وقد جاءت الأحاديث الصحيحة باللغتين جميعاً، وهى حجة فى جوازهما جميعاً . وأنهما لغتان . (النووى فى هامش الصفحة نفسها).

[٨٦] – راجع: التلخيص ، ص٤١ .

[٨٧]– صحيح البخاري، كتاب النكاح،باب الوصايا بالنساء، ص١٣٢١.

وذلك في صدر الحديث وعجزه، تأكيداً على الوصية بالمرأة . ولقد جاء الإنشاء في هذا الحديث الشريف غالباً على الخبر، مقدماً عليه في الغرض ، على الرغم من كثرة الجمل الخبرية فيه ، وبيان ذلك أن الغرض الرئيس المدفوع به الكلام هو الوصية بالترفق بهن ، أما الجمل الخبرية فقد جاءت – على كثرتها– مفسرة لذلك، مبينة تفاصيله .

ومنه – كذلك – قوله صلى الله عليه وسلم :

" **تزوجوا الودود الولود، فإني مكاثر بكم الأمم** " [٨٨] وهى جملتان ؛ الأولى إنشائية أمر يحمل حثاً بتفضيل الودود الولود من النساء على غيرها عند الزواج . أما الجملة الخبرية بعدها فجاءت سبباً داعياً إلى مضمون الجملة الإنشائية قبلها

كذلك في قوله صلى الله عليه وسلم :

" يا معشرَ الشبابِ ! مَنْ استطاعَ منكُم الباءةَ فليتزوج، فإنَّه أغضُّ للبَصّرِ وأحْصَنُ للفَرْجِ ، ومَنْ لمْ يستطعْ فعليه بالصومِ؛ فإنه له وِجَاء". [٨٩]

هذا حديث من جملة أحاديث تنوعت فيها الأساليب والصيغ ، ففيها النداء، الذي غالباً ما يتبعه أمر أو نهى، وفيه الإنشائي والخبري من الأساليب .

يا معشر الشباب: نداء فيه دعوة المخاطب إلى شيء مهم ، تمثل هنا في دعوة موجهة لشباب الأمة .

من استطاع منكم الباءة فليتزوج : إخبار بأداة شرطية ، اقترن فيها جواب الشرط بالفاء التى جاءت سبباً لمن استطاع تكاليف الزواج .

فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج : إخبار يؤكد على أهمية الزواج وفوائده .

---

[٨٨] –السنن الكبرى، كتاب النكاح، باب النهى عن تزويج المرأة التى لا تلد ، ج ٥ ، ص١٦٠، ١٦١ .

[٨٩] –صحيح البخارى، كتاب النكاح، باب من لم يستطع الباءة فليصم،١٢٩٣.

ثم يتكرر النمط الأسلوبي بالعطف ويشمل من ضمهم النداء ممن لا يستطيعون تكاليف الزواج فعليهم بالصوم ، وهنا جاء أسلوب الشرط بنفس الأداة (من) والأمر الواقع بصيغة اسم الفعل الأمر (عليه بالصوم) ، ثم الجملة الخبرية المؤكدة (فإنه له وجاء) .

ونجد هذا أيضاً في قوله صلى الله عليه وسلم :

" **يا على، لا تُتبع النظرةَ النظرةً ، فإن لك الأولى، وليست لك الآخرة** ".[٩٠]

فيه نداء (يا على)، تبعه نهى (لا تُتبع النظرةَ النظرةً)، ثم تفسير لدواعي هذا النهى بالجملة الخبرية (فإن لك الأولى، وليست لك الآخرة). ولقد وجِّه النداء لعلى لأنه المخاطب في المقام المذكور فيه الحديث، لكن لا يخفى أن النهى فيه ليس توجيهاً لعلى رضى الله عنه فقط، ولكن توجيهاً لكل الرجال .

ولقد ورد نهى باستثناء في قوله صلى الله عليه وسلم :

"**لا يخْلُوَنّ رجلٌ بامرأةٍ إلا مع ذي مَحْرَم**".[٩١]

وفيه تشديد بالمنع والكف بنون التوكيد التي أعقبت النهى في (لا يخلون) ، والحديث ينهى عن خلوة الرجل بالمرأة في غير وجود محرم لها، تحاشياً لما قد يترتب على هذا السلوك الذي لا يدرك مدى خطورته الكثير من الناس ، في شيوع المفاسد واتساع مداخل الشيطان .

ب-<u>الإيجاز والإطناب :</u>

لعلنا لا نحيد عن الصواب فى القول بأن الإيجاز والإطناب أقرب فنون الكلام العربي إلى البلاغة، وأكثرها تمييزاً وتصنيفاً لها ، ولقد قيل : إنه باب رفيع المنزلة

[٩٠] – سنن أبي داود ، كتاب النكاح، باب ما يؤمر به من غض البصر ، ج ١، ص ٣٧٣.

[٩١] – صحيح البخارى ، كتاب النكاح، باب لا يخلون رجل بامرأة إلا ذو محرم، والدخول على المُغيبة، ص١٣٣٣.

شامخ في الشرف ، بل هو أنف البلاغة الذي تعطس منه، ونابها الذي تفتر عنه .[٩٢] ولهذا الباب في المنظور البلاغي إطار تعريفي واضح . فمما قيل فيه : " الإيجاز أداء المقصود بأقل من عبارة المتعارف، والإطناب أداؤه بأكثر منها"[٩٣]

و هو " المقبول من طرق التعبير عن المراد تأدية أصله بلفظ مساوٍ له أو ناقص عنه وافٍ ، أو زائد عليه لفائدة؛ "[٩٤]

والمقصود بأول الكلام المساواة ، وأوسطه الإيجاز – وقد احترز بكلمة (وافٍ) عن الإخلال – وآخره الإطناب .

أما **الإيجاز** فهو مقدم في التوصيف البلاغي للكلام عن الإطناب، حتى اختزل البعض البلاغة كلها – دون الإطناب – فيه . ولقد ذكروا أن جعفر بن يحي بن خالد البرمكي[٩٥]كان يقول للكُتاب: إن استطعتم أن يكون كلامكم كله مثل التوقيع فافعلوا. وهذا أمر لهم بالإيجاز وتجنب الإطالة .[٩٦]

ولسان العرب مفطور على الإيجاز– إن جاز التعبير– وهم إليه أميل ، وعليه مدار بلاغتهم. ويكاد يكون الإيجاز هو الغلاف البلاغي الذي أحاط أقوال الرسول صلى الله عليه وسلم، وغلب عليها ، وهذا لانتمائه إلى اللسان العربي القرشي من جهة ،

---

[٩٢] –التلخيص ، ص٢٠٩ .

[٩٣] – السابق، ص٢١٠ .

[٩٤] – السابق، ص ٢١٠ .

[٩٥] – كان كبيراً في صناعة الكتابة ، وهو أحد الموصوفين بفصاحة اللسان ، وبلاغة القول . قالوا في وصف حديثه : جمع الهدوء والتمهل والجزالة والحلاوة، وإفهاماً يغنيه عن الإعادة .انظر: سر الفصاحة ، ابن سنان الخفاجي ، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ،١٩٨٢م ، ص٢٠٨ .

[٩٦] – السابق ، الصفحة نفسها .

ولأنه رسول الله المبعوث بكلامه عز وجل إلى أهل الفصاحة والبلاغة فأعجزتهم فصاحته وبلاغته في عقر دارهم من جهة أخرى.

ونرى من نماذج الإيجاز في أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم بصدد سياقات الترغيب والترهيب ما يقتصر على إيجاز القِصَر، وهو ما ليس بحذف وهو " أن يكون اللفظ القليل يدل على المعنى الكثير دلالة واضحة ظاهرة"[٩٧] . فإن معناه كثير ولفظه يسير[٩٨]. ومنه قوله صلى الله عليه وسلم :

" **تزوجوا الودود الولود** "[٩٩] فهو نصح وتوجيه للرجل عند طلبه الزواج بالإقبال على الودود الولود ، ففى الأولى حياة كاملة تقوم على التلطف والتودد تصنعها هذه الزوجة ، وقد أوجز صلى الله عليه وسلم هذه الحياة بهذه اللفظة، وفي الثانية تدعيم لهذه الحياة وأثر لها، تقوم عليه حيوات أخرى بالذرية الصالحة التي هي أثر لهذه الزوجة الودود .

وفي لفظة (الموت) في قوله صلى الله عليه وسلم : " الحمو الموت". فى الحديث الشريف " **إِيَاكُم والدُخُولِ على النساء. فقال رجل من الأنصار: يا رسول الله ، أَفَرَأَيْتَ الحَمُو؟ قال: الحَمُو المِوتُ**"[١٠٠] إيجاز يلخص نتائج الهلاك المفضي إلى انقضاء الحياة الآمنة السوية بعدم الأخذ بالضوابط الشرعية في الخلوة بغير المحارم ، والحمو[١٠١] هنا يتضمن أقارب الزوج مثل ، أخوه وابن أخيه وابن أخته وعمه وابن عمه ومن على شاكلة درجة رحمه تلك، دون أبو الزوج فهو يستثنى من هذا الحكم

---

[٩٧] – سر الفصاحة ، ص٢٠٧ .

[٩٨] – التلخيص ،ص ٢١٤ .

[٩٩] – السنن الكبرى ، كتاب النكاح، باب النهى عن تزويج المرأة التى لا تلد ، ج ٥ ، ص١٦٠، ١٦١ .

[١٠٠] – البخاري، كتاب النكاح، باب لا يخلون رجل بامرأة إلا ذو محرم ، ص ١٣٣٣.

[١٠١] – أحماء المرأة في اللغة هم : أبو الزوج ومن كان قِبَلِه من الرجال. المعجم الوسيط ،ص٢٠٨ .

بما ورد في النص القرآني في قوله تعالى : " وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ ..... لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ" (النور/٣١) وفى اختتام الآية بقوله تعالى: " لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ" ما يؤكد أن الخروج عن هذه الأحكام لا فلاح فيه . فإذا كان المنع للرجال عامة من غير المحارم في الخلوة بالمرأة ، فإن الحمو يكون منعه أوجب ما يستحق التشدد والوصف بالموت ؛ ذاك لأن وجود أقارب الزوج في بيته أمر معتاد ولا يلفت الانتباه مثل الأجنبي ، ولا يرتاب في أمره فتأمن المرأة لوجوده بالاعتياد فتقع الفتنة بينهما .وجاء القصر بتعريف الاسمين مؤكداً على تلك الخطورة ، فما الحمو إلا الموت . وفي هذا التعبير النبوي الشديد الإيجاز ما يدل على بلاغة محكمة ، وبيان رفيع المستوى.

وهذا اللفظ الوارد في الحديث الشريف – حقيقةً– يلفتنا إلى شيء مهم في مبحث الإيجاز، وهو ضرورة تخير الألفاظ التى تختزل الكثير من المعاني بحروفها القليلة بدقة ، تجعل هذا اللفظ أكثر من غيره ملائمة للقيام بمهمة الاختزال، والاكتفاء به دون بذل الكثير من الألفاظ لأداء المعنى المراد في الوصول للغرض من الكلام. ولا يقع في الظن أن ثمة لفظة ممكن أن يختزل فيها الخسران والهلاك أكثر من لفظة الموت . وهذا مالا يسمح بأى تجاوز في الأمر المحرم المذكور.

وفي قوله صلى الله عليه وسلم :

" **لا تؤدي المرأة حق ربها حتى تؤدي حق زوجها**".[١٠٢]إيجاز قصر على الرغم ما به من تكرار لبعض الألفاظ ، وهذا ما يمنح التعبير النبوي قدراً أعلى من إثارة الإعجاب والتعجب من تلك القدرة البلاغية ، فى كيفية اتفاقه بهذه الانسيابية والتدفق دون تكلف أو إخلال أو مبالغة أو تعقيد . فقد يعظم حق الزوج على زوجه ، ويتسع

[١٠٢] – سنن ابن ماجة، كتاب النكاح، باب حق الزوج على المرأة ،ص ٥٩٥ .

في الفهم دون المقام ، إذا ما وضع إزاء حق الله عز وجل . وهو ما يسمح بالكثير مما يمكن أن يرد على الذهن من حقوق الزوج.

وهذا الاستخدام الفريد للإيجاز يتكرر في الكثير من أقواله صلى الله عليه وسلم ، نجده مثلاً في قوله صلى الله عليه وسلم :

" **خيركم خيركم لأهله ، وأنا خيركم لأهلي** ". [١٠٣] فقد أوجز صلى الله عليه وسلم في كلامه بألفاظ وقع فيها تكرار – يُستخدم في مواضع الإطناب – فذكر صنفاً من الرجال استجمع من الصفات الجميلة ما استحق أن يكون بها خير الناس .

وعن حصين بن مُحْصِن: أن عمة له أتت النبي صلى الله عليه وسلم { في حاجة، ففرغت من حاجتها}، فقال لها النبى صلى الله عليه وسلم: أذات زوج أنت؟ قالت: نعم . قال: كيف أنت له؟ قالت: ما آلوه إلا ما عجزتُ عنه . قال: فانظري أين أنت منه ؛ فإنه هو جنتُك ونارُك . [١٠٤]

والإيجاز هنا في تلك الجملة التي استجمعت أموراً كثيرة فيها **(فإنه هو جنتك ونارك)** . تعنى أن الجنة والنار مرهونتان برضا الزوج و سخطه ؛ فعليك أيتها الزوجة أن تنظري أين أنت من هذا الرضا لتعرفي أين أنت من الجنة والنار.ولا شك أن التعبير بلفظة (الجنة) تختزل داخلها حياة كاملة في الدنيا، من بذل المرأة لزوجها كل ما يمنحها رضاه ومن ثم الجنة.وكذلك في لفظة (النار) فترمي إلى معان كثيرة يمكن أن ترتكبها الزوجة فتستوجب بذلك سخط الزوج . وهى أمور كثيرة أيضاً يجب تجنبها في الحياة الزوجية خشية الوقوع في سخط الزوج ومن ثم اتقاء النار . وهو إيجاز بلفظتين عبرتا عن الكثير من المعاني والدلالات ، مسكوت عن تعديدها ووصفها

---

[١٠٣] – سنن ابن ماجة، كتاب النكاح، باب حسن معاشرة النساء ، ص٦٣٦ .

[١٠٤] –مسند الإمام أحمد بن حنبل، ج٣١ ،ص٣٤١ .

لترك مجال استيعاب كل ما يمكن أن يندرج تحت هذه الأمور دون تحديد يفسد غرض الكلام . ولا يخفى ما في الحديث الشريف من بلاغة وقوة في التعبير تولدت عن الإيجاز ، والذي انطوى على بيان أن المرأة هي التي تختار لنفسها في الدنيا ،الجنة أو النار، ومصدرها القريب – كما أظهر الحديث الشريف – هو في حسن تبعل المرأة زوجها من عدمه .

وينطبق على هذه الأمثلة ما قيل في فضل الإيجاز في الكلام من حصول فائدة ؛ لأن النفس تذهب فيه كل مذهب ، ولو ورد المراد في المعنى ظاهراً في الكلام لاقتصر به على البيان الذي تضمنه [١٠٥].لأن الإيجاز لا يكون لمجرد الاختصار ، ولكن للدلالة على أن المسكوت عنه في الكلام (المحذوف) شيء لا يحيط به الوصف ، كما سبق . فلو عُيِّن شيء اقتصر عليه . وربما خف أمره عند السامع [١٠٦].

وبعد، فإذا كان الإيجاز يحمل في طياته ما يرفع قيمته في البلاغة، بما تظهر به معه القدرة على تكثيف المعنى مع تقليل الألفاظ ، فبما يستوجب الإطناب قيمة بلاغية ؟ وبخاصة أنه عكس الإيجاز في مفعوله في سياق الكلام ؟

ثمة بداهة منطقية لدى البلاغيين السابقين مفادها ، أنه إذا كان الإيجاز يستقطب – دون الإطناب – القيمة البلاغية في الكلام، لاطرد في الاستخدام القرآني وفي الحديث النبوي الشريف. لكن ثمة مواضع تستلزم الإطناب ويكون العدول عنه إلى الإيجاز خروجاً عن التوصيف البلاغي .

---

[١٠٥] – سر الفصاحة ، ص٢١٠ .

[١٠٦] – انظر السابق، ص١٤٦،١٤٧.

فمن تعريف ماهية البلاغة معرفة مواضع الإيجاز والإطناب، ولكل موضعه وقيمته في بلوغ الغرض، ونقول فيهما ما قال ابن الرومي في رثاء ولده إن جاز موضع الاقتباس :

لكل مكانه لا يسد اختلاله مكان أخيه

وفي ذلك قال صاحب الكشاف: " كما يجب على البليغ فى مظان الإجمال والإيجاز أن يجمل ويوجز فكذلك الواجب عليه في موارد التفصيل والإشباع أن يفصل ويشبع ".[١٠٧]

والإطناب "إما بالإيضاح بعد الإبهام ؛ ليُرَى المعنى في صورتين مختلفتين ، أو ليتمكن في النفس فضلَ تمكن. فإن المعنى إذا أُلقى على سبيل الإجمال والإبهام تشوقت نفس السامع إلى معرفته على سبيل التفصيل والإيضاح، فتتوجه إلى ما يرد بعد ذلك ، فإذا ألقى كذلك تمكن فيها فضل تمكن ، وكان شعورها به أتم ...وإذا حصل الشعور به من وجه دون وجه ، تشوفت النفس إلى العلم بالمجهول، فيحصل لها بسبب المعلوم لذة ، وبسبب حرمانها عن الباقي ألم. ثم إذا حصل لها العلم به : حصلت لها لذة أخرى ، واللذة عقب الألم أقوى من اللذة التى لم يتقدمها ألم. أو لتفخيم الأمر وتعظيمه".[١٠٨]

ومقام الترغيب والترهيب في الأمور المتعلقة بالرجل والمرأة أوجب في تحصيل هذه الأغراض لتمكين الغرض في نفس السامع . ولقد نقف في الأحاديث المعنية بهذا السياق على عدة صور للإطناب منها : التكرار، وذكر الخاص بعد العام ، والتذييل ، والتفصيل بعد الإجمال ،والإيضاح بعد الإبهام.

---

[١٠٧] – تفسير الكشاف ، ص٥٣.

[١٠٨] – الإيضاح ،ص ١٥١،١٥٢.

نبينها فيما يأتي :

في قوله صلى الله عليه وسلم : " **كلكم راعٍ وكلكم مسئول : فالإمام راعٍ وهو مسئول ، والرجل راعٍ على أهله وهو مسئول ، والمرأة راعية على بيت زوجها وهى مسئولة ، والعبد راعٍ على مال سيده، وهو مسئول ، ألا فكلكم راعٍ وكلكم مسئول** " [١٠٩]. موضعان للإطناب ؛ **أولهما** التكرار في صدر الحديث وعجزه . بقوله : كلكم راعٍ وكلكم مسئول. وفيه تأكيد على ضرورة تحمل كل إنسان مسؤوليته تجاه من يختص برعايتهم أياً كانت هذه الرعاية . فكل إنسان مكلف في الدنيا، صغر شأنه أم كبر. وفى التكرار هنا لفت إلى الأهمية . **وثانيهما** ذكر الخاص بعد العام . فقد ذكر على جهة العموم أن لكل إنسان رعية مسئول عنها، ثم تم تخصيص كل فرد فيها بعينه بما هو له ؛ الإمام ، والرجل، والمرأة ، والعبد ، ويندرج تحتها أي تخصيص آخر على نفس الشاكلة، لسبق التوجيه بالتكرار بشمول الكل بذلك .

وفي قوله صلى الله عليه وسلم : "**لكل ابن آدمَ حظُّه من الزنا، قال :واليدان تزنيان، فزناهما البطش، والرجلان تزنيان، فزناهما المشي، والفم يزني، فزناه القُبل**". [١١٠] إجمال بكون الإنسان له نصيب من الزنا كبر أم صغر، وهذا ما يروع له المرء ، ثم تزداد دائرة الروع في قلبه بذكر التفصيل . فاليد تزني ، والرجل تزني، والفم يزني .

وفى قوله صلى الله عليه وسلم : " **واستوصوا بالنساء خيراً، فإنهن خلقن من ضلع ، وإن أعوج شيء في الضلع أعلاه ، فإن ذهبت تقيمه كسرته، وإن تركته لم يزل أعوج، فاستوصوا بالنساء خيراً** "[١١١]

---

[١٠٩] – صحيح البخاري، كتاب النكاح، باب الوصاة بالنساء ص١٣٢١ .

[١١٠] – سنن أبي داود، كتاب النكاح ، باب فى ما يؤمر به من غض البصر، ص٣٧٣.

[١١١] – صحيح البخاري، كتاب النكاح ، باب الوصاة بالنساء، ص١٣٢١.

إطناب بالتكرار أيضاً في أول الحديث الشريف وآخره ، في قوله : استوصوا بالنساء خيراً.

وفيه تأكيد الوصية بالنساء ، ولفت الانتباه إلى وجوب الالتزام والاهتمام ، ومواضع التكرار الذي بدأ بها الكلام وانتهى ، فيها حث على ذلك .

وفي قوله صلى الله عليه وسلم : " **تزوجوا الودود الولود، فإني مكاثر بكم الأمم**"[١١٢] فيه تذييل وهو تعقيب الجملة بجملة تشتمل على معناها للتوكيد[١١٣] . وهنا تكون جملة : إنى مكاثر بكم الأمم تذييل للكلام حيث جاءت تعقيباً يؤكد الجملة الأولى ، ولا يفهم ذلك التعقيب مستقلاً عما قبله : تزوجوا الودود الولود . فلا تفهم الثانية إلا إزاء الأولى .

وهو من الضرب الذي لا تجري فيه الجملة الثانية مجرى المثل ، ولكن تتوقف على ما قبلها. والتذييل ضربان : ضربٌ لا يُخَرج مخرج المثل؛ لعدم استقلاله بإفادة المراد، وتوقفه على ما قبله. وضربٌ يُخرَج مخرج المثل ، وذلك بأن يقصد بالجملة الثانية حكم مستقل عما قبله، جار مجرى الأمثال.[١١٤]

وفي جملة التعقيب مسوغات قبول الجملة الأولى التي تحمل الغرض . فعلى الرجل أن يختار الزوج الودود الولود بارتباط الصفتين وهما كالمتلازمتين . كثرة الولد من الزوجة التى تستطيع تحمل أعباء ذلك ، وتواجه مشقة كثرة الإنجاب والتربية بالولد

---

[١١٢] – السنن الكبرى، كتاب النكاح، باب النهى عن تزويج المرأة التى لا تلد ، ج ٥ ، ص١٦٠، ١٦١ ..

[١١٣] – التلخيص ، ص ١٥٤ .

[١١٤] – مثال الضرب الأول من القرآن **(فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ** . ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا ۖ وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ " (سبأ/١٧) فقوله : "وهل نجازى إلا الكفور" تذييل غير جار مجرى المثل. ومثال الضرب الثاني قوله تعالى:" **وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ** ۚ **إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا** " (الإسراء/٨١) فقوله تعالى:"إن الباطل كان زهوقاً" تذييل أتى به لتأكيد الجملة قبله،وهو جار مجرى المثل " . الإيضاح، ص١٥٥. والمعاني في ضوء أساليب القرآن الكريم ،عبد الفتاح لاشين، دار الفكر العربي ،ط الرابعة،٢٠٠٣م، ص٢٦٢،٢٦٣ .

والتلطف. ومن هذه الأجيال الصالحة تكون أمة محمد التى يباهى بها سائر الأمم . وفي هذه المسوغات ما يحمل على الإقبال على هذا الصنف من النساء .

ويكثر في الحديث النبوي عامة الإيضاح بعد الإبهام ، مثلما يكثر في الأقوال المأثورة، وبخاصة بما يعرف بالتوشيع ، وهو أن يؤتى في عجز الكلام بمثنى مفسر باسمين ، أحدهما معطوفٌ على الآخر.[١١٥]

ونماذج هذا النوع من الإطناب في الحديث الشريف يتجاوز المثنى إلى الجمع ، خلافاً للمذكور في دراسات قدامى البلاغيين ، وهو رأى أُخذ بالقياس عليه .[١١٦]

وفي رأيي أن الثابت في التوشيع هو ما اتُفق في تعريفه المتعلق بالعجز ، سواء المثنى وفقاً للمنظور البلاغي القديم، أو على ثلاثة أو أربعة وكل ما يشمله الجمع في منظور بعض الآراء المعاصرة على القياس ؛ أما صدر الكلام فقد يتنوع . نوضح هذا المفهوم بالتمثيل كما يأتي:

في قوله صلى الله عليه وسلم :

" تنكح المرأة لأربع: لمالها، ولحسبها، ولجمالها، ولدينها فاظفر بذات الدين تربت يداك"[١١٧]

يندرج الحديث الشريف ضمن الإطناب، بإفادة لإيضاح بعد الإبهام ، بصورة التوشيع.

فقد عُرض في صدر الحديث جملة مستقلة ،أفادت معنى ينتهي إليه غرض الكلام. إلا أنه قد يستوجب بعده شيئاً من التوضيح للإفهام ، وإماطة اللثام عن ماهية تلك

---

[١١٥]– الإيضاح ،ص ١٥٢ .

[١١٦] – فى ذلك قال الدكتور عز الدين السيد :أما أنا فلا أسيغ تخصيص العدد بالمثنى . فلم لا يكون من التوشيع مثلاً : لا يؤمن عبد حتى يؤمن بأربع : يشهد أن لا إله إلا الله ، وأني محمد رسول الله بعثني بالحق، ويؤمن بالبعث بعد الموت، ويؤمن بالقدر . راجع: الحديث النبوي من الوجهة البلاغية، عز الدين على السيد ، ١٩٧٣م ،ص٣٨٧.

[١١٧] – سنن ابن ماجة، كتاب النكاح، باب تزويج ذات الدين، ص٥٩٤.

الأربع التي تزوج لها المرأة. وتأتي إجابة عن سؤال مفاده ، ما هي الأربع التي تنكح لها المرأة ؟ فتجيء الأربعة المعطوفات كاشفة : المال ، الحسب، الجمال ، الدين. فواحدة منها تنكح من أجلها المرأة ، ومعيار الاختيار يرجع إلى طبيعة الرجل ، وبما يراه مطلوباً لديه ، مناسباً له في المرأة ، وبما يسعى إلى الفوز به منها. فثمة الرجل الذي يفضل الزواج بالمرأة الثرية، وثمة من يعول في الزواج على الحسب والنسب والوضع الاجتماعي، وثمة من لا يرجو في الزوجة إلا جمالها ، ويرى أن هذا خليق بأن يحقق له السعادة والتوفيق في الزواج. وثمة من يقبل على المرأة التى تجعل من دينها أساساً لحياتها .

والحديث الشريف يُرَّغِب في ترجيح كفة المرأة ذات الدين على غيرها ، فذاك أفضل للرجل وللأسرة كلها ، وهو الفوز الذي يجب أن يظفر به.

ولقد يتفق استخدام الإطناب في مثل هذه السياقات التي تستلزم عرضاً وتفسيراً للإقناع ، وقد يدق استخدام التوشيع في بعض المواضع عن غيرها، وبخاصة تلك التي تتطلب شيئاً من لفت إثارة انتباه ، وشحذ ذهن المخاطب .

أما في قوله صلى الله عليه وسلم: " **ثلاثةٌ لا ترتَفعُ صلاتُهم فوقَ رؤوسهم شِبراً : رجلٌ أَمَّ قوماً وهم له كارِهُون، وامرأةٌ باتتْ وزوجُها عليها ساخِطٌ، وأخوانِ مُتَصَارِمان**" [١١٨].

فقد تصدر الكلامَ المسندُ بغرض التشويق إلى ذكر المسند إليه . وقد اعتبره البلاغيون في مبحث التقديم والتأخير، في أغراض تقديم المسند على المسند إليه إذا

[١١٨] –سنن ابن ماجة، كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها، باب أم قوماً وهم له كارهون ، ص ٣١١ .

كان يحمل ما يمكن مضمون المسند إليه عند سماعه ، ويكون المراد بتقديمه التشويق . [١١٩]

فالجملة المتصدرة الحديث الشريف (ثلاثة لا ترتفع صلاتهم فوق رؤوسهم شبراً) خبر يحمل على انتظار ذكر المبتدأ والتلهف علي معرفته ، وهو الجمل المعطوف بعضها على بعض. ذلك بأن الكلمات الموضوعة موضع الابتداء: رجل وامرأة وأخوان ، هى في مرتبة المعرفة ، أو أقرب لها من النكرة . لكونها نكرة موصوفة. والوصف قد منحها نوعاً من التعريف بالتخصيص. فالجملة الخبرية المتقدمة قد حملت أمراً يروع النفس، وتتلهف لمعرفة تفاصيله لكى تتجنبه فتنجو من أن تكون ضمن هؤلاء الثلاثة التى وضعت في صدر الحديث الشريف . ومن هؤلاء الثلاثة : امرأةٌ باتتْ وزوجُها عليها ساخِطٌ ، فمن تفعل هذا تتلقى نفس الجزاء الذي ضمنه الخبر المتصدر الحديث ، لا ترفع صلاتها فوق رأسها شبراً. ولا يخفى ما في الخبر المتصدر الكلام من غموض فسره ما جاء به المبتدأ بعده ، بما يعرف بالتوشيع .

أما في قوله صلى الله عليه وسلم :

"**من سعادة ابن آدم ثلاثة، ومن شقوة ابن آدم ثلاثة : من سعادة ابن آدم المرأة الصالحة، والمسكن الصالح، والمركب الصالح، ومن شقوة ابن آدم المرأة السوء، والمسكن السوء، والمركب السوء**"[١٢٠] . فيحمل على التحليل السابق إلا أن الخبر المتقدم جاء جملتين معطوف أحدهما على الآخر: من سعادة ابن آدم ثلاثة، ومن

[١١٩] – انظر مفتاح العلوم، أبو يعقوب السكاكي ، مطبعة دار الرسالة ، بغداد ، ط الأولى ، ١٩٨٢م، ص٤٢٤. والتلخيص ، ص ١٢٥ .

[١٢٠] –مسند الإمام أحمد،ج٣ ، ص٥٥ .

شقوة ابن آدم ثلاثة . وأما ما جاء في موضع المبتدأ فقد سبقه تكرار مما ورد في جمل الخبر المعطوفة المتقدمة : من سعادة ابن آدم كذا وكذا وكذا ، ومن شقوة ابن آدم كذا وكذا و...والحديث بدون المعطوفات في الصدر وبدون التكرار في العجز يكون على النحو الآتى :

من سعادة ابن آدم ثلاثة : المرأة الصالحة ، والمسكن الصالح، والمركب الصالح .

ومن شقوة ابن آدم ثلاثة : المرأة السوء، والمسكن السوء، والمركب السوء .

والحديث الشريف جمع بالمعطوفات في صدره عنصر التشويق الذي تتطلع إليه النفس ، فتتساءل: ترى ما هذه الثلاثة التى تسعد الإنسان ، وما التي تشقيه. فتأرز النفس للأولى ، وتشفق من الثانية . ولقد ذكر الحديث الشريف أن من الثلاثة التي تكمن فيها سعادة الإنسان المرأة الصالحة، ومن الثلاثة التي تشقيه المرأة غير الصالحة (المرأة السوء)؛ ذلك لأن المرأة ترافق زوجها في مسيرة الحياة فإذا صلحت صلحت معها الحياة وطابت، فيسعد الرجل ويهنأ في عيشته، وإذا كانت غير ذلك تكدرت أيامه وشَقِى ليله ونهاره. ولقد ورد المعنى نفسه في الحديث الشريف " **الدنيا متاعٌ، وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة**". [١٢١]

وهذا تأكيد في السنة النبوية الشريفة على أهمية المرأة ومكانتها، ودورها الحيوي في ضبط إيقاع حياة الرجل، فبها تجمل الحياة أو تقبح . وفي هذا حث على أهمية اختيار المرأة الصالحة عند الزواج، والترهيب من اختيار المرأة السوء .

رابعاً التصوير البياني

[١٢١] – صحيح مسلم، كتاب الرضاع ، باب خير متاع الدنيا المرأة الصالحة ، ص٦٧٢ .

لم يرد في سياق الترغيب والترهيب بصدد علاقة الرجل بالمرأة الكثير من وجوه التعبير البياني، باستخدام الصور والتشبيهات وغيره، فلم نقف فيها إلا على ما يأتي في إفادة غرض ما نحن بصدده :

١- قوله صلى الله عليه وسلم :

" **إياكم والدخولَ على النساء. فقال رجل من الأنصار: يا رسول الله ، أفرأيت الحمو؟ قال: الحمو الموت**" [١٢٢]. وهنا تشبيه بليغ في (الحمو الموت)، وهو ما حذفت فيه الأداة ووجه الشبه . حيث جاء تشبيه الحمو بالموت بجامع حصول إنهاء الحياة، والوصول إلى نهاية الدنيا ؛ لأننا بفقدنا الحرص على الحفاظ على عفة المرأة، بالتغاضي عن مخالطتها أحمائها نكون بذلك قد قضينا على كل عوامل الحياة الزوجية ، بما يترتب على هذا السلوك من مخاطر، أعلاها النيل من عفة الزوجة وفيها ضياع لشرف الزوج، وأدناها فساد سمعتها وفيها خلق مشاكل بين الزوجين تؤدي إلى خراب البيت خراباً هو والموت سواء . وهو تشبيه غرضه تقبيح هذا السلوك .

٢- قوله صلى الله عليه وسلم :

" **ألا واستوصوا بالنساء خيراً، فإنما هنَّ عَوانٍ عندكم** " [١٢٣]

تشبيه بليغ في(هن عوان عندكم) حيث شبه المرأة عند زوجها ودخولها تحت حكمه وإمرته بالأسيرة، بجامع امتلاك الأمر من القوى إلى الضعيف. وهو تشبيه غرضه الترفق بالزوجة وحسن معاملتها ،فالزوج هو القائم على شؤنها ، يتولى أمرها وينفق عليها وهى كالأسير ضعيفة لا تملك لنفسها شيئاً .

---

[١٢٢] – صحيح البخاري ، كتاب النكاح، باب لا يخلون رجل بامرأة إلا ذو محرم، والدخول على المغيبة، ص ١٣٣٣.

[١٢٣] – سنن الترمذي ، كتاب الرضاع ، باب حق المرأة على زوجها، ص٤٥٩.

٣- قوله صلى الله عليه وسلم :

" إنما الدنيا متاع، وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة". [١٢٤]

فى هذا الحديث الشريف تشبيه للدنيا بالمتاع فى التمتع والانتفاع والتبلغ وسرعة الفناء .

وهو تشبيه فى سياق يحث " على استثمار الدنيا للآخرة فذكر خير استثمار الزوجة الصالحة ؛ لأنها عون زوجها على طاعة ربه. والتشبيه الوارد في الحديث (الدنيا متاع) من التشبيه البليغ الذي حذفت فيه أداة التشبيه، وحذف وجه الشبه من باب المبالغة كأن الشيء هو هو"[١٢٥]

٤- قوله صلى الله عليه وسلم:

" إن المرأة كالضلع ، إذا ذهبت تقيمها كسرتها، وإن تركتها استمتعت بها وفيها عِوج"[١٢٦]

في هذا الحديث الشريف تشبيه تمثيلي ، حيث شبهت المرأة بالضلع في الاعوجاج . وهو تشبيه " حال بحال : يشبه حال المرأة في صعوبة إقامتها على الجادة واحتفاظها بذلك بحال الضلع في استعصائه على أن يستقيم ،وأن نفعه في أخذه على ما خلق ، فذلك جبلة وخلقة ،وما كان كذلك فالحكمة الانتفاع به على ما جبل عليه" [١٢٧].

٥- قوله صلى الله عليه وسلم :

---

[١٢٤] –صحيح مسلم، كتاب الرضاع ،باب خير متاع الدنيا المرأة الصالحة، ص، ٦٧٢ .

[١٢٥] –أثر التشبيه في تصوير المعنى" قراءة فى صحيح مسلم" ،عبد الباري طه سعيد ،الطبعة الأولى،١٩٩٢م، ص١٩٠ .

ويحتمل أن يكون قوله صلى الله عليه وسلم " الدنيا متاع" من باب الحقيقة والله أعلم بالصواب .

[١٢٦] – صحيح مسلم، كتاب الرضاع، باب الوصية بالنساء ،ص ٦٧٣ .

[١٢٧] –أثر التشبيه في تصوير المعنى ، ص ١٩٠ .

"عن أسماء بنت يزيد رضى الله عنها : أنها كانت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم والرجال والنساء قعود عنده، فقال: " **لعلَّ رجلاً يقولُ ما فعلَ بأهلهِ، ولعلَّ امرأةً تُخبِرُ بما فعَلتْ مع زوجِها" . فأرَمَّ القومُ، فقلتُ: أى والله يا رسولَ الله ! إنَّهم لَيفْعَلون، وإنَّهُنَّ ليفْعَلْنَ. قال: " فلا تَفْعَلوا، فإنّما مَثلُ ذلك شيطانٌ لقى شيطانة، فَغَشِيَها والناسُ يَنْظُرونَ**".[١٢٨]

الحديث الشريف هنا ينفر من إفشاء الزوجين أسرار الفراش، وفيه تصوير لعادة مستنكرة يقع فيها بعض الناس من التحدث عن أمورهم الخاصة المبنية على السِتر والقائمة على الكتمان . فإن الذى يتكلم بما يكون بينه وبين أهله مثل الشيطان ، وكذلك فإن التي تتكلم بما يكون بينها وبين زوجها مثل الشيطانة، ولا يكتفي التشبيه المنفر بالوقوف عند هذا الحد، وإنما يجاوز ذلك إلى أن هذين الشيطانين يقومان بهذا الفعل أمام الناس [١٢٩].وهنا تشبيه تمثيلي ، وجه الشبه فيه منتزع من متعدد ومركب. وهو المنظر المنفر بارتكاب ما يوصف بالفحش على الملأ علانية .

٦- قوله صلى الله عليه وسلم :

"لكل ابن آدمَ حظُّه من الزنا، قال :واليدان تزنيان، فزناهما البطش، والرجلان تزنيان، فزناهما المشي، والفم يزني، فزناه القُبل "[١٣٠]

في الحديث الشريف استعارة مكنية ، حيث شبه اليدان ، والرجلان، والفم بالإنسان الزاني، وذكر المشبه وحذف المشبه به الذي نستدل عليه من كلمة (تزني)وهل يزنى إلا الإنسان؟ .

---

[١٢٨] – مسند الإمام أحمد ،ج١٦،ص ٥٧٤ .

[١٢٩] –التصوير الفني في الحديث النبوي،ص ٢٣٥.

[١٣٠] – سنن أبي داود، كتاب النكاح ، باب فى ما يؤمر به من غض البصر، ص٣٧٣.

والحديث بهذا التصوير في الاستعارة المكنية كشف عن مقصود الغرض ، وهى تلك الأجزاء التى تزني، والتي في أساسها عندما تُجَّمع في شكل تتركب صورة إنسان كامل الهيئة . والزنا في الإنسان معروف كيفيته ، فكيف يكون في اليد والرجل والفم؟ هذا ما كشف عنه الحديث الشريف، وذكره بشكل مباشر . وفى انتقاء لفظة الزنا مناسبة للتنفير من مثل هذه الأفعال التى يستهان بها وبعواقبها التي ربما تنتهي بصاحبها إلى الزنا الكامل بمفهومه على الحقيقة وليست الاستعارة .

٧- قوله صلى الله عليه وسلم:

"لا يَحِلُّ لامرأة تسأل طلاقَ أختها لتستفرغ صحفتها، فإنما لها ما قُدِّر لها "[١٣١]

لقد تضمن الحديث الشريف التحذير من أمر يكثر في كل زمان ومكان ؛ لأن طبيعة المرأة أكثر ما يرتكز فيها الغيرة، وبخاصة إذا ما كانت على زوجها من أخريات في عصمته، ممن يسمون بالضرائر، فتكيد الواحدة منهن للأخرى لتستأثر بالزوج ، ومما يدخل في هذا الكيد حمله على طلاق ضرتها ، سواء أكانت هي الزوجة الأولى أم غير ذلك . فتناول التوجيه النبوي الشريف هذه المسألة تحجيماً لها ،وقضاءً على آثارها ، وإغلاقاً لباب كثيراً ما يلح على المرأة طرقه. فجاء التحريم متصدراً الكلام واضحاً وحاسماً، ثم اختار لفظة (أخت) طلباً لإثارة مشاعر الود والحب والشفقة ، وتذكيراً للمرأة أن من تطلب تطليقها ما هي إلا أخت لها ، وامرأة مثلها.ثم استخدام الاستعارة التمثيلية لتصوير حقيقة فعلتها فقد " شُبهت المرأة التي تسأل طلاق أختها ليخلص لها زوجها، وتنفرد به دون سواها، حتى يقصر النفقة والمعروف والمعاشرة عليها، بامرأة نهمة أقدمت على آنية طعام لامرأة غيرها،

[١٣١] –صحيح البخاري، كتاب النكاح، باب الشروط التى لا تحل فى النكاح، ص١٣١٣ .

فأفرغت ما فيها في إنائها تبجحاً وجشعاً " [١٣٢]. ليختم بالتأكيد على أنها لن تأخذ أكثر مما قدره الله لها .وليس لطلاقها أو عدمه أثراً في ذلك.

بعد الفراغ

فإني أحمد الله حمداً كثيراً على أن ألقى فى خاطري فكرة هذا البحث ، فأتاحت لى التجوال فى كتب رواية الأحاديث النبوية الشريفة ، والاقتراب من عالم ما كنت أعرفه ، وقد كنت من قبل أقرأ الأحاديث بشكل متفرد بوصفها شاهداً على مسألة ما، أو في سياق لا يتطلب طول نظر وتأمل . ولما شرعت في حصر الأحاديث المتصلة بموضوع البحث، وهى العلاقة بين الرجل والمرأة في سياقات الترغيب والترهيب ، وجدتني أتوسع في الاطلاع إلى ما يخرج عن هذه الحدود إلى غيرها، لأجدني قد طرقت سبيلاً لا يمكنني مفارقته، وعثرت على كنز من المعرفة يتعلق بالفقه والتعاملات فى الإسلام لا مثيل له . مع الشعور بحالة من الصفاء الروحي، والترقي الوجداني عند معايشة الأجواء الطبيعية التي شهدت أقوال الرسول صلى الله عليه وسلم، وحركة حياة الصحابة حوله رضوان الله عليهم جميعاً . ولست أخفى ما انتابني من هواجس عند التناول البلاغي فيما يتعلق بالأساليب البلاغية فى الحديث الشريف ، وتساءلت بيني وبين نفسي عن عدة أمور؛ هل هذه الأحاديث النبوية منقولة بسندها وروايتها نصاً أم بتصرف؟ هل هي مروية لفظاً أم معنى؟ وبخاصة إذا ما كان هناك أكثر من رواية للحديث الواحد . حتى أزالت دراسة الدكتور عز الدين السيد هذه الهواجس، وأجابت عن هذه التساؤلات وأكثر منها في كتابه (الحديث النبوي من الوجهة البلاغية) أما الرواية بالمعنى فقد كانت على قلتها يتم التنبيه عليها من الراوي ، ولا يسكت عن حرف واحد ينسب إلى رسول الله صلى الله

[١٣٢] – من بلاغة الحديث الشريف، عبد الفتاح لاشين، عكاظ للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى،١٩٨٢م،ص ١٠٥ .

عليه وسلم ليس هو قائله . وكان الحرص شديداً لا يداخله أدنى تهاون فى رواية أقواله صلى الله عليه وسلم بألفاظها . وأما عن اختلاف الروايات فقد فسره الدكتور عز الدين بأن الرسول صلى الله عليه وسلم " كان يخاطب أصحابه في المناسبات بما يناسب مقام كل مجلس، فيتكرر الحديث بصور كل منها يؤدي الغرض في موضعه، وربما سئل مسألة أكثر من مرة، فيجيب كل سائل بما يراه موافقاً حاله، فتأتي الألفاظ الدائرة حول المعنى العام الواحد مختلفة باختلاف الخصوصيات، وربما نشأ الاختلاف بالزيادة والنقص من سماع الصحابي الحديث كله لحضوره المجلس كاملاً. وسماع الآخر جزءه لتأخره عن سماع أوله، أو انصرافه لعذر طرأ عن سماع آخره ، انصرافاً فعلياً أو نفسياً " [١٣٣]. ولقد اعتمدت في هذه الدراسة من كتب رواية الحديث النبوي على الصحيحين البخارى ومسلم، وسنن أبي داود والنسائي وابن ماجة والترمذي، والقليل من مسند الإمام أحمد بن حنبل ؛لأنها دون غيرها يطمئن إليها قلبي . ولقد اتفق على أنهم من الثقات من الرجال. ويمكننا تحديد موضوعات الترغيب والترهيب فى البيان النبوي الشريف كما وردت فى الدراسة فيما يأتي:

أولاً موضوعات الترغيب :

١- طاعة الزوج .

كما في قوله صلى الله عليه وسلم : " إذا صَلّتْ المرأةُ خَمْسَها، وصامَتْ شَهْرَها، وحَفِظَتْ فَرْجَها، وأطاعَتْ زَوْجَها، قِيلَ لها :ادْخُلي الجنّةَ مِنْ أي أبوابِ الجنّةِ شِئْتِ". [١٣٤]

٢- حفظ الفرج، وغض البصر.

[١٣٣] – الحديث النبوى من الوجهة البلاغية، ص٤١ .

[١٣٤] – مسند الإمام أحمد، أحمد بن حنبل ،ج٣ ، ص١٩٩.

كما فى قوله صلى الله عليه وسلم : " اضْمَنوا لي سِتَّاً مِنْ أنفُسِكم أضْمَنْ لكُم الجنَّة : اصدُقوا إذا حَدَّثْتُم، وأوفوا إذا وعَدْتُم، وأدُّوا الأمانة إذا ائتُمِنتُم، واحفَظُوا فُروجَكُم، وغُضُّوا أبصارَكُم، وكُفُّوا أيديَكُم" [١٣٥]

٣- حسن اختيار الزوجة.

كما في قوله صلى الله عليه وسلم: " تزوجوا الودود الولود، فإني مكاثر بكم الأمم" [١٣٦].

٤- حسن معاملة الزوج لزوجه .

كما في قوله صلى الله عليه وسلم: " خيركم خيركم لأهله ، وأنا خيركم لأهلي ". [١٣٧]

٥- الانفاق على الزوجة.

كما فى قوله صلى الله عليه وسلم: " دينارٌ أنفقتَه في سبيل الله، ودينارٌ أنفقته في رقبةٍ، ودينارٌ تصدَّقْتَ به على مسكين، ودينارٌ أنفقته على أهلِكَ ؛ أعظمها أجراً الذي أنفقته على أهلِكَ".[١٣٨]

ثانياً موضوعات الترهيب:

١- تكفير العشير .

كما في قوله تعالى: " أُرِيت النارَ، فإذا أكثر أهلها النساء يكفرنَّ . قيل : أيكفرن بالله؟ قال: يكفرن العشير، ويكفرن الإحسان. لو أحسنت إلى إحداهن الدهر ثم رأت منك شيئاً قالت: ما رأيتُ منك خيراً قط ".[١٣٩]

---

[١٣٥] – مسند الإمام أحمد، ج٣ ، ص٣٧ .

[١٣٦] – السنن الكبرى ، كتاب النكاح، باب النهى عن تزويج المرأة التى لا تلد ، ج ٥ ، ص١٦٠، ١٦١ .

[١٣٧] – سنن ابن ماجة، كتاب النكاح، باب حسن معاشرة النساء ، ص٦٣٦ .

[١٣٨] – مسلم ، كتاب الزكاة، باب فضل النفقة على العيال والمملوك ،ص٤٤٥.

٢- التهاون في أمور الشرع .

كما في قوله صلى الله عليه وسلم: " ثلاثٌ جِدُّهنَّ جِدٌ وهَزلُهُنَّ جِدٌ : النكاحُ، والطلاقُ ،والرَّجْعة "[١٤٠]

٣- اختيار الزوجة على أساس الدين والصلاح.

كما في قوله صلى الله عليه وسلم:" " لا تَزَوَّجُوا النِّسَاءَ لِحُسْنِهُنّ . فعَسَى حُسُنهن أن يُرْدِيهُنّ . ولا تَزَوَّجوهن لأموالهن . فعسى أموالَهن أن تُطْغِيهن . ولكن تزوجوهن على الدين" .[١٤١]

٤- امتناع الزوجة عن المعاشرة.

كما في قوله صلى الله عليه وسلم:" **إذا دعا الرجلُ امرأتَه إلى فِراشِه، فأبت أن تَجِئَ ؛ لعَنَتْها الملائكةُ حتى تُصبِحَ**".[١٤٢]

٥- الفتنة بين الزوجين.

كما في قوله صلى الله عليه وسلم:" **من أفسدَ امرأةً على زوجها فليس منا**". [١٤٣]

٦- عدم العدل بين الزوجات.

كما في قوله صلى الله عليه وسلم:" " **من كانت له امرأتان فمالَ إلى إحداهُما : جاءَ يومَ القيامةِ وشِقُّه مائلٌ**".[١٤٤]

٧- إفشاء أسرار الفراش.

---

[١٣٩] – صحيح البخاري، كتاب الإيمان ، باب كفران العشير، ص ١٧.

[١٤٠] –سنن أبي داود، كتاب الطلاق ، باب في الطلاق على الهزل ، ج ٢ ،ص٣٨٢.

[١٤١] –سنن ابن ماجة ، كتاب النكاح ، باب تزويج ذات الدين ، ص ٥٩٧ .

[١٤٢] –صحيح البخاري، كتاب النكاح، باب إذا باتت المرأة مهاجرة فراش زوجها، ص ١٣٢٤.

[١٤٣] –مسند الإمام أحمد ،ج ١٨ ، ٨٠ .

[١٤٤] – سنن أبي داود ، كتاب النكاح، باب فى القسم بين النساء،ص ٣٧٠.

كما فى قوله صلى الله عليه وسلم:" **"إن من أشر الناس عند الله منزلة يوم القيامة، الرجل يفضي إلى امرأته، وتفضي إليه ثم ينشر سرها".**[١٤٥]

٨- الخلوة بالمرأة الأجنبية .

كما في قوله صلى الله عليه وسلم :" " **إِيَاكُم والدُخُولِ على النساء. فقال رجل من الأنصار: يا رسول الله ، أَفَرَأَيْتَ الحَمُو؟ قال: الحَمُو المِوتُ"**[١٤٦]

٩- التهاون فى حق الزوج .

كما في قوله صلى الله عليه وسلم:" والذي نفس محمد بيده ، لا تؤدي المرأة حق ربها حتى تؤدي حق زوجها ".[١٤٧]

ومن الملاحظ فيما سبق أن موضوعات الترغيب من الحث على طاعة الزوج، وحسن المعاملة، والإنفاق على الزوجة وتحمل مسؤوليتها، موضوعات يناسبها الترقيق والتلطف في نشر أجواء طيبة في العلاقة بين الزوجين، أما موضوعات الترهيب من الاختيار على أساس غير الدين والصلاح، وسوء التبعل، والفتنة بين الزوجين، وعدم حفظ الأعراض، فهي موضوعات يناسبها الشدة في التحذير، والتخويف ؛ فقد تدفع كل ما يمكن أن يصيب بيت الزوجية، أو العلاقة بين الرجل والمرأة بالضرر وسوء العاقبة. وهى نفسها أسباب غلبة أحاديث الترهيب على الترغيب في ضبط العلاقة بين قطبي الحياة : الرجل والمرأة .

وبتتبع الأساليب البلاغية المستخدمة في البيان النبوي الشريف بصدد علاقة الرجل والمرأة ، نجد أن أكثرها هو أسلوب (التكرار) سواء في الترغيب أو الترهيب ، وهو أكثرها اتساقاً ومناسبة لهذا المقام ، ولقد ذكرنا من قبل أن التكرار يكون في "

---

[١٤٥] – صحيح مسلم،كتاب النكاح، باب تحريم إفشاء سر المرأة ، ص٦٥٤.

[١٤٦] – البخاري، كتاب النكاح، باب لا يخلون رجل بامرأة إلا ذو محرم، والدخوب على المغيبة، ص ١٣٣٣.

[١٤٧] –سنن ابن ماجة، كتاب النكاح، باب حق الزوج على المرأة ، ص ٥٩٥ .

المواقف التي يكون فيها الأمر ذا شأن وخطر في الحياة الروحية والنفسية، فتقتضي الحال أن يقابل هذا الموقف بما ينبغي له الحضور النفسي والعقلي ...والتكرار أداة فعالة من أدوات الإيقاظ والتنبيه" [١٤٨].

ولقد ذكر الزركشي أن الكلام إذا تكرر تقرر، وهو نوع من تمكين المعنى وتقريره ، وذكر أيضاً أن من أغراضه التعظيم والتهويل، والتأكيد .[١٤٩]

والله من وراء القصد ، وهو حسبي ، عليه توكلت، وإليه أنيب .

أولاً المصادر:

١- الجامع الكبير- سنن الترمذي، أبو عيس محمد الترمذي(٢٠٩-٢٧٩هـ)، تحقيق بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي- بيروت.

٢- سنن ابن ماجة، الحافظ محمد يزيد القزويني (٢٠٩-٢٧٣هـ) ،ابن ماجة، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية.

٣- سنن أبي داود ،أبو داود سليمان الشعث السجستاني (٢٠٢-٢٧٥هـ))، تحقيق محمد ناصر الدين الألباني ، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع ، الرياض.

٤- السنن الكبرى ، النسائي ، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب (٢١٤-٣٠٣هـ)، تحقيق حسن عبد المنعم شلبي،مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى ،٢٠٠١م .

٥- صحيح البخاري، أبو عبد الله محمد بن اسماعيل البخاري (١٩٤-٢٥٦هـ) ، دار ابن كثير ، دمشق- بيروت ، الطبعة الأولى٢٠٠٢م.

٦- صحيح مسلم، شرح النووي .

---

[١٤٨] -إعجاز القرآن، عبد الكريم الخطيب ، ص ٤٠٦ .

[١٤٩] – البرهان فى علوم القرآن، بدر الدين الزركشي، تحقيق محمد أبو الفضل ، مطبعة الحلبي، الطبعة الأولى،١٩٥٧م، ج٢،ص ١٨٠.

٧- مسند الإمام أحمد، أحمد بن حنبل(١٦٤-٢٤١هـ) ، حققه الشيخ شعيب الأرنؤوط وعلق عليه عادل مرشد، مؤسسة الرسالة .

ثانياً المراجع :

١- أثر التشبيه في تصوير المعنى" قراءة فى صحيح مسلم" ،عبد الباري طه سعيد ،الطبعة الأولى،١٩٩٢م .

٢- أساليب التشويق والتعزيز في القرآن الكريم، دكتور الحسين جرنو محمود جلو، دار العلوم الإنسانية، دمشق ،ط١ ،١٩٩٤م.

٣- أسرار البلاغة، عبد القاهر الجرجاني، تحقيق محمود شاكر،دار المدني بجدة، الطبعة الأولى١٩٩١م.

٤- الأصوات اللغوية، إبراهيم أنيس، مكتبة نهضة مصر.

٥- إعجاز القرآن، عبد الكريم الخطيب ، دار الفكر العربي، القاهرة، الطبعة الأولى .

٦- إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، مصطفى صادق الرافعي، مراجعة درويش الجويدي، المكتبة العصرية ، بيروت، ٢٠٠٦م .

٧- الإيضاح ، الخطيب القز ويني، وضع حواشيه إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى،٢٠٠٣م .

٨- البرهان فى علوم القرآن، بدر الدين الزركشي، تحقيق محمد أبو الفضل ، مطبعة الحلبي، الطبعة الأولى،١٩٥٧م، ج٢ .

٩- تأويل مشكل القرآن، ابن قتيبة ، شرح السيد أحمد صقر ،ط٢ .

١٠-التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر ،١٩٨٤م الكتاب الأول ،ج١.

١١-التربية الأخلاقية، دكتور إبراهيم ناصر، دار وائل للنشر، ط١، ٢٠٠٦م.

١٢-التصوير الفني في الحديث النبوي، محمد لطفي الصباغ، المكتب الإسلامي، الطبعة الأولى،١٩٨٨م .

١٣-تفسير الكشاف، الزمخشري، تحقيق خليل مأمون شيحا، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الثالثة، ٢٠٠٩م .

١٤- التكرار الإيقاعي في اللغة العربية،سيد خضر، دار الهدى للكتاب، الطبعة الأولى،١٩٩٨م.

١٥- التكرار في الحديث النبوي الشريف، أميمة بدر الدين، مجلة جامعة دمشق، المجلد ٢٦، العدد الأول – الثاني ،٢٠١٥م .

١٦-التلخيص في علوم البلاغة، الخطيب القزويني، ضبطه وشرحه عبد الرحمن البرقوقي، دار الفكر العربي ،الطبعة الأولى، ١٠٩م .

١٧-جواهر البلاغة، السيد أحمد الهاشمي ، تحقيق وشرح محمد التونجي، مؤسسة المعارف، بيروت،١٩٩٩م .

١٨- الحديث النبوي من الوجهة البلاغية، عز الدين على السيد ، ١٩٧٣م .

١٩- حسن الابتداء والانتهاء في سور القرآن الكريم، مخطوط ماجستير إعداد وفاء فيصل ، كلية الآداب، جامعة الموصل، ١٩٨٨م.

٢٠- خصائص الأسلوب في الشوقيات، محمد الهادي الطرابلسي، الجامعة التونسية، تونس ،١٩٨١م .

٢١- السجع في القرآن ، ديفن ج .ستيورات ، ترجمة /إبراهيم عوض ، مكتبة زهراء الشرق ،١٩٩٨م .

٢٢-سر الفصاحة ، ابن سنان الخفاجي ، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ،١٩٨٢م .

٢٣-صبح العشى في صناعة الإنشا، القلقشندي، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة، القاهرة ١٩٦٤م .

٢٤- الصناعتين، أبو هلال العسكري، تحقيق على محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، منشورات المكتبة العصرية، صيدا، ١٩٨٦م .

٢٥-الصورة البيانية في الحديث النبوي الشريف ، دراسة تطبيقية في سنن الترمذي ، مخطوط ماجستير في اللغة العربية ، رحمة الله الطيب رحمة الله ، جامعة أم درمان الإسلامية .

٢٦- علوم البلاغة العربية ، محمد أحمد ربيع ، دار الفكر، عمان،١٩٩١م .

٢٧- قصص القرآن الكريم ، فضل حسن عباس ، دار النفائس، الأردن ، الطبعة الثانية،٢٠٠٧م

٢٨- لسان العرب، ابن منظور، المجلد الثاني.

٢٩- المعاني في ضوء أساليب القرآن الكريم ،عبد الفتاح لاشين، دار الفكر العربي ،ط الرابعة،٢٠٠٣م .

٣٠-المعجم الوسيط،ج٢ ، مكتبة مشكاة الإسلامية، ص ٣٦٩.

٣١-مفتاح العلوم، أبو يعقوب السكاكي ، مطبعة دار الرسالة ، بغداد ، ط الأولى ، ١٩٨٢م .

٣٢-من بلاغة الحديث الشريف، عبد الفتاح لاشين، عكاظ للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى،١٩٨٢م .

٣٣- النحو المصفى، محمد عيد، مكتبة الشباب ، ط الأولى ، ١٩٧١م .

٣٤-نحو المعاني، أحمد عبد الستار الجواري، ١٩٨٧م .